الموكب

مجلة تربوية علمية ثقافية - تصدر عن اللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والعلوم والثقافة

الرافد المحظري في النظام التعليمي الموريتاني

***

صلة الحاج الشنقيطي بعلماء مصر.. وثائق تنشر لأول مرة

***

رحلة إلى أفريقيا للرحالة: مونگو بارك/ أول وثيقة مَن شاهد عيان عن إمارة أولاد امبارك- 22مايو 1795

***

قراءة لجدلية الحضور والغ باب في قصيدة "وردة الصقيع" لصلاح عبد الصبور

***

استنساخ الأنواع

***

أثر الثورة المعلوماتية الجديدة في الإتصال الجماهيري والمجتمع

** العـــددان 13 و 14 **سبتمبر - أكتوبر - نفمبر - دجمبر 1997 ** الثمـــن : 200 اوقيـــة **

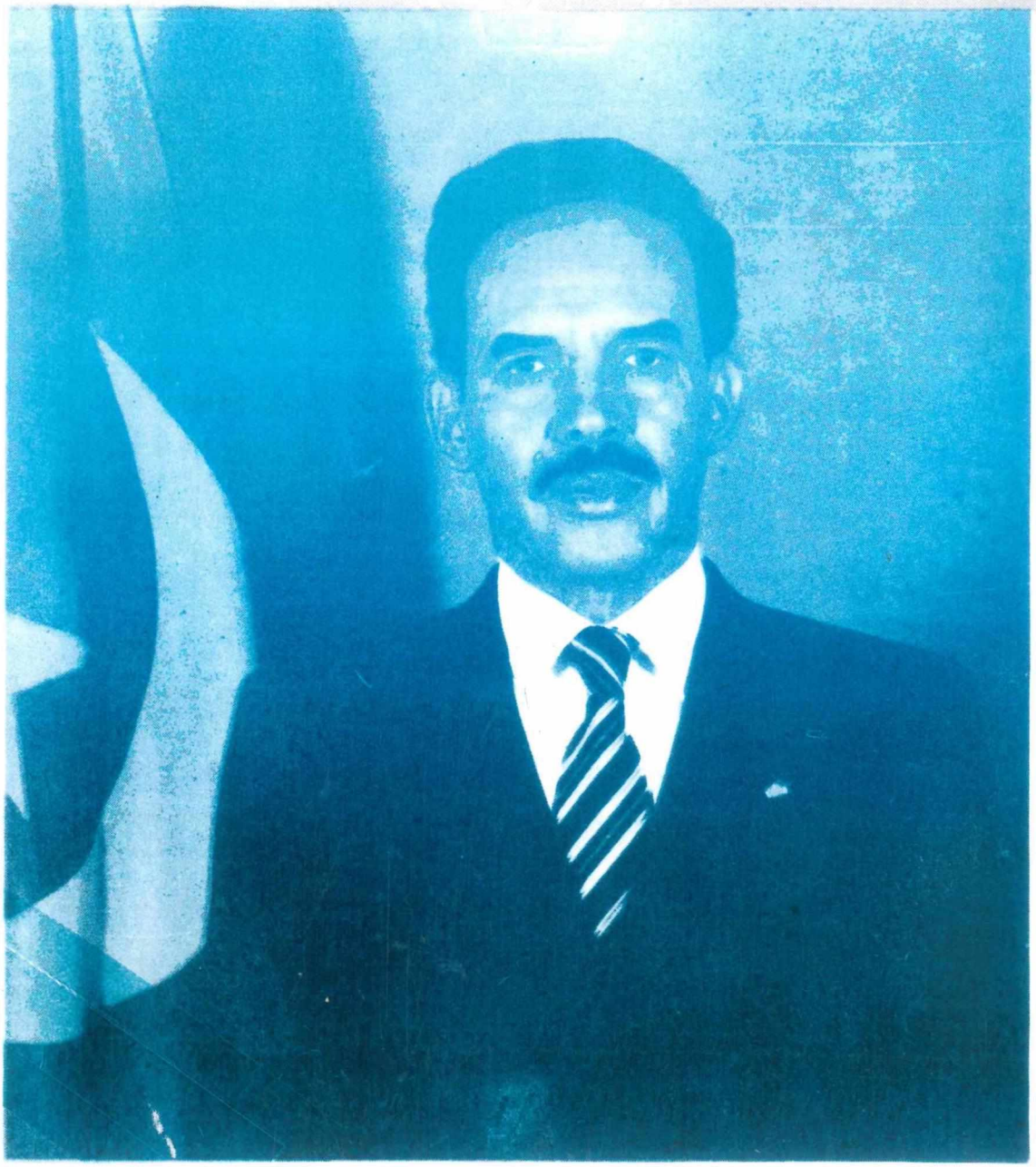

يتقدم طاقم مجلة «الموكب الثقافي» بأحر التهانئ والتبريكات لقائد مسيرة النماء والتقدم، فخامة الرئيس معاوية ولد سيد أحمد الطايع بمناسبة السنة الجديدة 1998 ، عرفانا بالجميل لما يقدمه من رعاية سامية للمجلة ومن خدمة جليلة للثقافة والمثقفين والعلم والعلماء.

الموكب الثقافي

مجلة تربوية علمية ثقافية - تصدر عن اللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والعلوم والثقافة

ص ب : 5115 هاتف : 54803 فاكس : 52802

في هذا العدد

الرافد المحظري في النظام التعليمي الموريتاني

****

صلة الحاج الشنقيطي بعلماء مصر .. وثائق تنشر لأول مرة

****

رحلة إلى أفريقيا للرحالة : مونگو بارك /
أول وثيقة من شاهد عيان عن إمارة أولاد امبارك-
22مايو 1795

****

قراءة لجدلية الحضور والغياب في قصيدة
"وردة الصقيع" لصلاح عبد الصبور

****

استنساخ الأنواع

****

أثر الثورة المعلوماتية الجديدة في الإتصال الجماهيري والمجتمع

****

المدير الناشر:
اعلي ولد بيوط

رئيس التحرير:
محمد الأمين ولد المنير

المدير الفني
محمد ولد أحقان

يساعده:
امبارك ولد بيروك
احمد ولد الشيخ
أحمد سالم ولد بيوط

سكرتير التحرير:
أحمد جدو ولد محمد

المحررون:
محمد فال ولد عبد الرحمن
بوبه ولد محمد نافع
الشيخ المعلوم ولد محمد سالم
مريم بنت بكرن
عبد الله السيد
لاله بنت محمد محمود

مصلحة المتابعة والإشتراكات:
سليمان ولد بونه مختار
الشيخ التحاني

الطباعة والإخراج:
Infotex ABAS
سحب: المطبعة الوطنية

الآراء الواردة في المجلة لاتعبر إلا عن رأي أصحابها

العددان 13 و 14 **سبتمبر - اكتوبر - نفمبر - دجمبر 1997 ** الثمن 200

الإفتتاحية

تودعنا سنة 1997 ونلج بوابة الأمل الرحب لسنة98 .

وتصادف نهاية هذه السنة إطفاء الموكب الثقافي لشمعة العدد الرابع عشر منها، بعد أن خلفت وراءها -رغم عمرها الزمني القصير نسبيا- عددا من البحوث، والإبداعات، والمعالجات المختلفة، أسهم بها مبدعون ونقاد وباحثون موريتانيون وعرب ودوليون، كان صدر المجلة مهادا رحبا لإنتاجهم المتميز.

والمجلة إذ تقدر لهؤلاء الكتاب والشعراء والباحثين ثقتهم فيها، تشكرهم على التعاون معها، وسعيهم إلى تحسين أداء المجلة لتنال ثقة القراء، وهو مايسعد مجلة الموكب الثقافي، ويمنحها الأمل للسير قدما من أجل تحقيق ماتصبو إليه من احترام القواعد العلمية والأدبية والعملية للنشر؛ بل أن تقطع على نفسها عهد شرف ببذل أقصى الجهود النوعية في تحسين المستوى العام للمجلة شكلا ومضمونا، وبالعمل على تأسيس وترسيخ تقاليد إعلام ثقافي يأبى لنفسه إلا الإحترام، والأصالة، والتحديث.

-الإحترام: منهجا متميزا في شكل ومضمون المواضيع التي تنشرها المجلة، مع مايتطلبه ذلك من موضوعية علمية وشروط للنشر.

- والأصالة: صفةً ملازمة لهوية شعبنا في إنتاجه الثقافي والعلمي، بجميع مكونات هذا الإنتاج، سواء في مظهره العالم أوفي مظهره الشعبي، حيث تتعانق شخصية موريتانية هي أنموذج لمقاومة الطبيعة، والتعامل السلس الناجع معها، ومثال للتكيف البناء والذكي مع التبدلات التي تواجه بها الصحراء إنسانها، وعينة نادرة لمعايشة المحيط المكاني والزماني والبشري، حيث تصبح الشخصية الموريتانية بهذا شخصية تخلد عناق الإنسان ووسطه الطبيعي والبشري، عناق محبة وإخاء وأريحية.

-والتحديث: نمطا لولوج القرن الواحد والعشرين بشروط الإنتماء إليه، وذلك من خلال بث روح التحديث، وتقديم مستجدات العصر لكي يتم استيعابها، بما تضمنته من ثورة معلوماتية، كالأنترنيت، والطريق الكوني السيار، والمواصلات الفضائية بالأقمار الصناعية... وغير ذلك من المستجدات التي تطل علينا كل يوم من رحم الغيب.

كل ذلك مع الحرص على الهوية الحضارية لشعبنا.

إن المجلة إذ ترسم هذا المسار الثلاثي سبيلا وموضوعا لنشرها في المستقبل فإنها تستجيب بذلك لروح التوجه العام الذي أسسه قائد مسيرة التحديث المتبصر، والأصالة المستنيرة، فخامة الرئيس معاوية ولد سيد أحمد الطايع، والذي يرعى على وجه الخصوص، النشاط الثقافي للبلد، ويسدد بتوجيهاته الموفقة مسيرتنا الثقافية. وخير دليل على ذلك مجلتنا هذه «الموكب الثقافي» التي أنشئت ومنحت شروط استمرارها، بتوجيهات سامية مباشرة منه. فالشكر موصول لفخامته على رعايته للثقافة والعلم وعلى حرصه الشخصي على تأسيس إعلام ثقافي يحتضن البحث العلمي والإبداع.

فلايسع طاقم المجلة إلا أن يسدي إليه أحر التهانئ بمناسبة السنة الجديدة، وهي سنة مباركة بلا شك لأنها تصادف غرة الحدث الديمقراطي المتميز وفوز فخامته في الإستحقاقات الرئاسية لفترة ثانية.

وكلنا اطمئنان وثقة في مستقبل مشرق لهذه البلاد تحت قيادته، وعلي وجه الخصوص، في نهضة ثقافية تبوئ بلادنا مكانتها اللائقية بها، والتي تبوأتها عبر التاريخ نشرا للعلم ورسالة الإسلام السمحة وبثا لروح الإخاء بين كل الأجناس البشرية.

***

المدير الناشر

أعـــل ولد بـــبوط

الأمين العام للجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم

الرافد "المحظري" في النظام التعليمي الموريتاني

سيدي محمد ولد محمد عبد الله

خبير ـ المعهد التربوي الوطني

1 - محددات منهجية:

نرمي من وراء هذه الخاطرة الي ابراز جوانب من التأثير المتبادل مابين المنظومة التربوية التقليدية التي كانت تحضر فيها الانماط التعليمية في موريتانيا حتى دخول المستعمر في مطلع هذا القرن، وبين المدرسة النظامية الحديثة.

وعلي الرغم من ان هذا الموضوع قد تطرقت اليه بعض البحوث المتصلة بمقاومة التعليم الاستعماري من الوجهة التاريخية، الا ان المقاربة الآنية للوضع الراهن ماتزال حسب رأينا - بحاجة الي مزيد من السبر والتمحيص لاستجلاء حقيقة الواقع التربوي الموريتاني في الوقت الحالي.

فالخارطة التعليمية في موريتانيا بتوزعها نظامان تعليميان ينحدر احدهما من المدرسة العتيقة المعروفة محليا باسم " المحظرة" والتي يتراوح مستواها مابين مستوى" الكتاتيب" المعروفة في مشرق وطننا العربي، وبين مستوى أرقى الجامعات التراثية، كالازهر والقرويين. في حين يتمثل النظام الثاني في المؤسسات التعليمية الحديثة في الأطوار الإبتدائية والثانوية والجامعية.

وتفيد آخر الاحصائيات ان اعداد الطلبة الذين يرتادون" المحاظر" بمختلف مستوياتها تصل الي 60418(*)، بينما يبلغ تلاميذ المرحلة الاساسية من التعليم النظامي 311581 والمرحلة الثانوية 47634 والجامعية 11619 طالبا (**)، مما يعني ان التعليم الاصلي كما يسمى رسميا يستقطب 16.2٪ من النشئ الدارس اطفالا كانوا او

شبابا.

والملاحظ ان القناطر مفتوحة دائما بين النظامين سواء عن طريق الاكتتاب المباشر في المدارس الاساسية او عن طريق ترشح خريجي المحاظر لمختلف الامتحانات والمسابقات الوطنية، وهذا مايحدوا بنا الي محاولة تلمس الرافد المحظري في المدرسة الموريتانية الحديثة.

2 - بعض المؤشرات الدالة:

في غياب دراسات متخصصة في الموضوع سنلجأ الي استعراض بعض المؤشرات التي تبرز جوانب من ظاهرة التأثير المحظري في المدرسة الموريتانية.

1.2 - يحرص كثير من الاسر الموريتانية علي ان يحتفظ اطفالهم بوشائج تربطهم بالتعليم الاصلي المحظري سواء بارسالهم الي الكتاتيب خلال العطل المدرسية او باتداب مؤدب خصوصي غالبا مايكون مقرئا للقرآن الكريم. ويستشف من استقراء استطلع فيه فريق من الباحثين سنة 1997 علي مستوى مدينة انواكشوط (تحت اشراف اليونيسف) آراء عينات من آباء التلاميذ ان غالبية المستجوبين متشبثون بعلاقة ما مع التعليم الاصلي.

وبهذا يمكن ان نجزم بان جل - ان لم نقل كل - التلاميذ الموريتانيين مدينون بشكل او بآخر للرافد المحظري. ومن ثم يجدر الا نركز إهتمامنا في البحث عن آثار هذا الرافد بقدرما نتوخى امثل السبل للاستفادة منه.

2.2 - تشير دراسة اجريت سنة 1986 لتقييم التعليم الاساسي في موريتانيا (***) الي ان تحصيل التلاميذ الذين زاولوا التعليم المحظري قبل دخولهم المدرسة او بموازاة مع ذلك يسجل ارتفاعا ملحوظا في المواد الانسانية وخاصة من حيث الرصيد اللغوي والالمام بالتعاليم الدينية.

3.2 - يحرز طلبة المحاظر الذين يلتحقون بالمؤسسات التعليمية النظامية نتائج مرضية غالبا، ولايجدون صعوبة كبيرة - علي مايبدو - في التكيف مع مقتضيات النظام الجديد، مما يدل علي ان التعليم المحظري - وان خلا من بعض المواد العلمية كالعلوم التجريبية والرياضيات - يرسي لدى مرتاديه آليات للحفظ والاستيعاب اقوى مماهو متاح للتلاميذ النظاميين. وقد حدث ذات مرة ان احد طلبة المحاظر ترشح للباكلوريا ولم يكن لديه الوقت الكافي لتحضير المواد العلمية، فما عتم ان نظر المقرر في ارجوزة وحفظها في فترة قياسية واجتاز الامتحان بنجاح!

3 - الاسس المنهجية لربط اللحمة بين النظامين.

ظهر منذ سنوات قلائل اهتمام باضفاء الطابع الرسمي علي الدراسة المحظرية تجلي في انشاء ادارة للتعليم الاصلي وانشاء معاهد لاستقطاب خريجي المحاظر. بيد ان الرافد المحظري لايؤخذ حتى الآن في الحسبان - حسب علمي - في تقدير نسبة التمدرس الاجمالية علي الصعيد الوطني، ولا في تحديد كلفة التعليم العام ولا في رصد اتجاهاته المستقبلية وتقييم مدخلاته ومخرجاته وكفاءته الذاتية (efficience interne). ومرد ذلك في نظري الي غياب

احصائيات دقيقة (رغم الجهد المحمود الذي تبذله ادارة التعليم الاصلي بهذا الصدد). اذ ان التعليم المحظري يظل في الواقع نمطا من التعليم الاهلي غير المصنف (informel)، ومن ثم يعسر الي حد ما دمجه في القنوات المنظمة مالم تتخذ بعض التدابير التمهيدية نقترح منها مثلا:

– ان توضع ضوابط لممارسة التعليم المحظري (كما وضعت للتعليم الحر) تحدد حدا ادنى من المؤهلات العلمية لمن يزاول التدريس في المحظرة التي ينبغي ان تحظي بترخيص مسبق من جهة الاشراف المختصة لتفادي تسرب الافاقين والادعياء الي هذه المهنة الشريفة؛

– ان يجري تنسيق محكم مابين المشرفين علي النظامين التعليميين لتحديد اوجه التكامل والتعاون بينهما.

– العمل علي توحيد النظامين في المستقبل عبر استيراتيجية سنورد بعض ملامحها في الفقرة الموالية.

4 - تطوير التعليم الاصلي وكيفية استفادة المدرسة الحديثة من طرائق التعليم المحظري

لايتسع المقام لان نسهب المقال في السبل الكفيلة بتطوير تعليمنا الاصلي، بل سنقتصر علي ملامح التغيير البنيوي الاساسية التي بدونها لن يكتب لهذا النمط التعليمي ان يواجه عصر الانفجار المعرفي وعولمة الاتصال عبر شبكات الانترنيت والبث بالاقمار الصناعية.

في مثل هذه الظرفية لا مندوحة للتعليم الاصلي من ان يونو صوب تطعيم مقرراته بشذرات ولو قلت من العلوم الحديثة. ولن يتأتى ذلك مالم يكسر الحاجز النفسي الذي يضرب علي بعض (وليس كل) حملة العلوم الدينية حصارا يعزلهم عن الانفتاح علي علوم العصر.

ويحسن ان نشير هنا ان هذا الانفتاح ممكن – بل سهل نسبيا – بدليل ان العديد من الفقهاء ذوي التكوين المحظري ملمون الماما جيدا بالمعطيات العلمية الحديثة كما يبدو من خلال محاضراتهم في وسائل الاعلام المسموعة والمرئية. فباخضاع اساتذة المحاظر للتكوين السريع في اساسيات العلوم الطبيعية والرياضيات (كما تحاول ذلك اليونيسف حاليا في بعض المحاظر النموذجية) يصبح هؤلاء المدرسون مؤهلين لتخريج دفعات من الطلبة المتضلعين من علوم الشرع الحنيف والمنفتحين علي الحياة العصرية بوعي يحول بينهم وبين رفضها بتعصب اعمي والانبهار لها باستلاب المجتث من اصوله.

ولمتسائل ان يسأل: وماسيكون الفرق عندئذ بين المحظرة والمدرسة النظامية؟ وللجواب علي ذلك نزعم ان الفرق يكمن اساسا في الاهداف التربوية والطرق الموصلة اليها. وندعي ان المحظرة الموريتانية تنطوي علي كنز من المزايا التربوية يسوغ الاحتفاظ بها والعض عليها بالنواجذ، وفي رأينا ان التدهور في مستوى المدرسة النظامية يعود قسط كبير من اسبابه الي التخلي عن اساليب التعليم المحظري التي يمكن ان تستفيد منها المدرسة من حيث:

- الدافعية للتعليم :

فالطالب من المحظرة يتلقى علوما ذات صبغة دينية سواء كانت علوما شرعية او علوم آلة، (وحتي المواد العلمية الحديثة اذا ما ادخلت فسينظر اليها من الجهة الشرعية علي انها فروض كفائية). ومن ثم فان المقررات تحظي بالانصياع الطوعي للمتعلم (l'adhesion de l'appranant) الذي يتعلم العلم لذاته بدوافع شخصية دون اكراه قسري.

- مراعاة الفروق الفردية:

فالتعليم المحظري يعامل المتعلم كفرد له حاجات تعليمية خاصة به واستعدادات وقدرات ذهنية قد يشاركه فيها غيره فينضم معه فيما يسمى باصطلاح المحظرة "دولة" اي رفقاء درس. فاذا ماتبين ان وتيرة تحصيل احد الطلبة متفوقة او متدنية عومل علي اساس مستواه الحقيقي. وبذلك يتجنب التلميذ تراكم "الضعف" الذي يلاحظ في النظام التعليمي الحديث الذي يستهجن الرسوب واعادة الفصل سنة ثانية فيتساهل في التجاوز من مستوى الي مستوى اعلي منه، فيحدث من ذلك مايصدق عليه المثل "ضغث علي ابالة".

- الاتقان المعرفي :

فالملاحظ ان خريجي التعليم النظامي (وكاتب المقال احدهم ولا ينبئك مثل خبير) لايكاد يوجد لديهم في المحصلة النهائية زاد معرفي ملموس. وقصارى مايحرزون من تعليمهم نتفا متفرقة من المعارف او مقدرة علي البحث عن المعلومات في مظانها ونحو ذلك. اما خريج المحظرة فهو كما قال الامام الشافعي:

علمي معي حيث مايممت يصحبني
صدري وعاء له لاجوف صندوق
ان كنت في البيت كان العلم معي فيه
أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وماذلك الا لاعتماد التعليم المحظري علي الاستظهار والحفظ وشحذ الذاكرة بالدربة والمراس والضبط الفائق للمعلومات : فالاحاديث تروي بالاسانيد والاحكام تسند بدقة الي مصادرها وحتي الالفاظ تضبط بالحركات مخافة التحريف والتصحيف. ولعمري ماتفشي اللحن في الفصحي اليوم الا بعد ان خرجت من عباءة الفقيه لتدخل في بذلة صحفي متسرع يريد ملء عمود جريدته اليومية.

وللحديث بقية

هوامش :

* مجلة التعليم العدد 28 - اكتوبر 1997

* * تقرير الملتقي السنوي للمسؤولين التربويين الجهويين - سبتمبر 1997.

* * * تقرير يقيم التعليم الاساسي 1986.

تدريس الشيخ يحظيه وطريقة إلقائه

الحلقة الثانية

محمذن ولد المحبوب

دكتوراه السلك الثالث في الأدب العربي

لقد امتاز الشيخ يحظيه بجودة التلقين فأصبح مناط القصد ومضرب المثل إذ خصه الله بقدرة فائقة على التوضيح والإفهام وأمده بمهارة في التبيين والإلقاء فكان عارفا بصنوف التدريس متمكنا من طرائق التربية والتهذيب، حتى ليمكن القول أنه أوتي من الحكمة وفصل الخطاب ما مكنه من تقديم المعارف في أسلوب مبين مستلطف، فانتهى إلى التقديم في العقيدة والنحو، ليصبح أبرز نوابغ الحفظ وجوامع العلم، فكان بحق سيبويه العصر وخزانة الفقه والأدب، بل منتهى المأمول والطلب، وسنعمل فيما يلي على إبراز جوانب من ابتكارات هذا الشيخ ومنهاجه التربوي المتميز.

1 - تربيته للطلاب وتلطفه بهم:

لقد عمل الشيخ على تهذيب أبناء محظرته تهذيبا متميزا، يتجلى عبر منهاجه وطريقته في تربية النشء، والأطفال، إذ يرحم المريض ويؤانس الصغير بفتل الأذن وعرك الشعر، وربما ضمه إليه أو أجلسه بين يديه، مفتحا أمامه منزله ومكتبته، وذلك ما أوضحه أحمد محمود (مم) بن عبد الحميد في نظمه لمناقب شيخ هذه المحظرة يقول (28) الرجز:

كان لطالب العلوم يرحم
لاسيما إذا اعتراه سقم
يونسه بعرك أذن وشعر
وقد يضمه إليه فيسر
ولا يصون كتبه عن طالب
وليس دون بابه من حاجب

وكان يشفع هذا التهذيب بتربية روحية قائمة على الصبر والمجاهدة، راكنة إلى التصوف السني كأقوال الشاذلي (29) وطريقة الجنيد (30) فكان يربي القوم على العبادة والورع والتضحية والبذل مقدما إليهم ورد الشيخ الشاذلي ووظيفة الإمام زروق (31) المعروفة

"سفينة النجا لمن إلى الله التجا".

2 - عباراته وأمثلته:

لقد ابتع الشيخ منهاجا متميزا يقوم على توضيح العبارة واستجلاء المعنى، مستعينا بضرب الأمثلة والتشبيهات البليغة، فكان مثلا يشبه الجملة الإسمية (المبتدأ والخبر) بخيمة مضروبة تعتمد على ركيزتين فإذا دخلت الأفعال النواسخ هذه الخيمة كما يقول الشيخ فإنها تسقط الركيزة الخلفية (الخبر) لتجعله إسما لها منصوبا، أما الحروف النواسخ فإنها تسقط الركيزة الأمامية (المبتدأ) لجعله إسما لها منصوبا كذلك، ويتم إسقاط الخيمة وإزالة رفعها مع أفعال القلوب التي تزيل الركيزتين (المبتدأ والخبر) جاعلة منهما مفعولين لها وهكذا (32).

وأكثر ذلك يشبه توزيع علامات الإعراب الأربعة بين الفعل والاسم بأخوين شقيقين ورثا أربعة جمال عن والدهم (الرفع، النصب، الجر، الجزم) فاشتركا في اثنين ليستخدمانهما في شؤونهما حسب الحاجة وهما (الرفع والنصب) في حين اقتسما الجملين الباقيين بالسوية فأخذ أحدهما الجزم، ليختص الآخر بالجر (33) وهكذا.

ويروى أن طالبا مبتدئا جاء إلي الشيخ مرة فأراد أن يتجاوز مستواه قافزا على مبادئ اللغة، منتهيا إلى دراسة الألفية فنبهه الشيخ بلطف وأرشده بحكمة مشيرا إلى أنه لا ينبغي أن يبدأ أولا بأبجديات النحو كالآجرومية ليرتقي إلى الألفية وما شاكلها. ولكي يصرف الشيخ طالبه عن الألفية ضرب له مثلا محسوسا فأمره أن يقطع غصنا ملتفا في شجرة كثيرة الشوك ممتدة العروش، ملاصقة الأوراق لينتهي أخيرا إلى الغصن المذكور فقال له الشيخ كذلك الألفية لا يستبيح حرمها إلا من أدرك مبادئ النحو وأبجديات اللغة فاقتنع الطالب بهذا الجواب المحسوس، مؤمنا أنه لن يفهم يفهم نص ابن مالك إلا بعد أن يحيط بالأجرومية علما(34).

وفي تدريسه لمختصر خليل كان أيضا يوضح المعاني عبر أمثلة بديعة منها قوله: "اعجول خيم ما احلب الوحد اخر"(35)

بهذه العبارة الحسانية البديعة والمثل المحسوس، كان الرجل يشرح قول خليل: "ولا يجبر ركوع أولاه بسجود ثانيته" والمعنى أنه لا يمكن لمن فاته ركوع من ركعة، وفاته ركوع من ركعة، وفاته سجود من ركعة أخرى أن يلفق من بينها ركعة فيضم سجود الركعة المنسي ركوعها إلي ركوع الركعة المنسي سجودها، كما لا يمكن لأسرتين متجاورتين تملك كل واحدة منهما بقرات ذوات عجول أن تتبادلا وتتقارضا عملية الحلب، فلو افترضنا مثلا أن إحدى هذه الأسر ضلت عجولها وجاءت بقراتها في حين أن الأخرى ضلت بقراتها وحضرت عجولها، فلا يصح للأولى أن تستخدم عجول الثانية لتستدر بقراتها بذلك وهكذا والعكس صحيح(36).

وعبر هذه الأمثلة البديعة تترسخ المعارف في الأذهان وتنطبع المعلومات في الذاكرة بل تتجلى صعاب المعاني أمام ناظر القدم البليد وتنكشف االدلالات أمام صاحب الفهم السليم وقد نبه أحمد محمود (مم) بن عبد الحميد إلى هذه الوسائل التوضيحية مبينا منهاج الشيخ في التدريس إذ يصوغ للطلبة من العبارات ما يعذب ويسوغ، ومقدما المعنى البعيد المطموس في صورة القريب المحسوس، ميسرا أمام الفهوم كل صعب حرون لينقلب تعقد المشكلة على يديه وضوحا بفعل حسن الأجوبة وضرب الأمثلة ويخيل إلى الطالب من بينا هذا الشيخ أن دروسه منتعشة مبينة تنطق وتلغي، بل هي صورة متحركة، حية تسعى، يقول(37) الرجز:

وكان في إغرائه يصوغ
عبارة لفهمهم تسوغ

يريهم المعنى أخا الطموس
مبرزا في صورة المحسوس
يضرب الأمثال التي تفهم
حتى كأنه لهم مجسم
تحسب نجل قاسم بين الورى
وسيبويه بعد موت نشرا
يسوق مشكلات كل باب
سوق الحداة ذلل الركاب

وأكثر من ذلك فإن الشفيع بن المحبوب كتب ورقات تناول خلالها حياة الشيخ يحظيه مركزا على تبيان نزعته التربوية وقدرته الفائقة على التوصيل وأسلوبه المتميز في ضرب الأمثلة والتصوير فأكسب ذلك دروسه انتشارا بين الناس وشهرة وصيرورة يقول: "أسلوبه نكتة مضحكة، وملح مستعذبة، وبراعة في سرد الأخبار، وتصوير دقيق، وإيضاح عجيب، وتفهم الأسرار الألفاظ، ففي تعابيره من المتانة ووضع الكلمة في موضعها وسلاسة التركيب والجزالة خلة لا تبلغ من عالم مبلغها منه، فأصبحت دروسه على شفة كل موريتاني"(38).

وصفوة القول أن هذا الشيخ بارع في التدريس، بل مدرسة في التعليم، وذلك ما أشار إليه المختار بن المحبوب(39) مشيدا بقدرة الشيخ على التوصيل ومهارته في التلقين جاعلا منه بدرا وشمسا، بل مكون أجيال وقادح عبقرية، فعباراته إلى الأفئدة نفاذة فهي سهام معرفية صائبة، تداعب الأفهام عن قرب وتلامس القلوب بلطف، وتنفتح لها الأذهان وتنشرح أمامها الصدور لأن الشيخ قد أوتي قدرة فائقة على التفنن في أساليب التعبير والقول فأصبح بذلك حافظة الأمة والعصر وجامعة الدراسة والبحث، بل كلية للتربية والعلوم، وحضرة للتصوف وإذكاء الفهوم يقول(40) الرجز:

وفيه(41) موت العالم النبيه
بدر الزمان شمسه «يحظيه»
من فاز بالحفظ وبالتحصيل
وجودة التلقين والتوصيل
والآخذون عنه لا يحصونا
ومن كرام الناس مصطفونا
كان إمام الأولياء الكبرا
لكن بتعليم الورى تسترا

الهوامش:

(28) ابن سيد احمد مجلة الوسيط: مرجع سابق. ص: 56

(29) هو علي أبو الحسن الشاذلي (ت 656 هـ، 1258 م) صوفي زاهد إليه تنسب الطريقة الشاذلية، ولد بغمارة بالقرب من سبته وسكن شاذلة (تونس) وتوفي بصعيد مصر، له مؤلفات منها: مجموعة الأحزاب.

(30) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج القواريري (ت. 297 هـ ، 910 م) صوفي زاهد بغدادي، تلقى العلوم الصوفية عن خاله السري السقطي سيد القوم. حج ثلاثين حجة ماشيا.

(31) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد البرنسي (ت. 899 هـ، 1493م) فقيه مالكي غلب عليه التصوف وفق الطريقة الشاذلية، توفي بمصراطة في ليبيا، له شرح الحكم العطائية، وشرح على مختصر خليل.

(32) مقابلة مع العلامة بشير بن جنكي في قرية العارف بتاريخ 97/7/10

(33) مقابلة مع الأستاذ الجليل محمد بن زين المحبوب في انواكشوط 97/6/6

(34) المقابلة السابقة.

(35) (اعجول خيمة ما ينحلب لواحد اخر) عبارة حسانية ومعناها ان عجول أسرة ما يمكن أن تستدر بها بقرات أسرة أخرى.

(36) محمد يحي ولد سيد أحمد: حياة الشيخ يحظيه ومحظرته، مرقون بحوزة العالم عبد الله السالم بن يحظيه.

(37) ابن سيد أحمد، مجلة الوسيط، مرجع سابق. ص: 57

(38) الشفيع بن المحبوب: حياة الشيخ يحظيه. مخطوط بحوزة عبد الله السالم: مرجع سبق ذكره.

(39) هو المختار بن محمذن (المحبوب) بن مختار بن محمذن الالفغي اليدالي الشمشوي (1307 - 1391 هـ) فقيه نظامة، نحوي مؤرخ، قارئ متكلم، شاعر مجيد له مشاركة في علم الحساب والمنطق وعلم الأصول، كان شيخ محظرة، له مؤلفات منها نظم في غريب القرءان ومنظومة في حوادث السنين ووفيات الاعيان، بالإضافة إلى انظام محاذية لمختصر خليل في فقه، وألفية ابن مالك في النحو، أخذ عن الشيخ يحظيه بن عبد الودود وعن ابن عمه الزين بن أحمد، وقد تخرج على يده كثير من العلماء، وله كذلك ديوان شعري معظمه في التوصل، لم يحقق بعد.

(40) مخطوط بحوزتنا.

(41) الضمير في "وفيه" يعود على العام المذكور في الأبيات السابقة وهو عام 1358 هـ وقد أشار إليه بقوله:

وفي نح موت الإمام البائع
في الله نفسه المنيب الطائع
زين الزمان شمسه ابن أجمد
لازال في عون من الله الصمد

وكلمة "نح" بحساب الجمل تعني 58 والمقصود أن الرجل المذكور توفي في سنة 1358 للهجرة، وفي هذه السنة نفسها توفي الشيخ يحظيه.

***

أي تعليم عال نريد للعالم العربي في القرن الحادي والعشرين؟

الشيخ المعلوم ولد محمد سالم

قطاع التربية - اللجنة الوطنية

هذا الشعار هو الذي اختير للمؤتمر الاقليمي التحضيري للمؤتمر العالمي حول التعليم العالي (بيروت 2 - 5 / 03 / 98).

تحضر اليونسكو لعقد مؤتمر عالمي حول التعليم العالي في مقرها في باريس تحت عنوان «التعليم العالي في القرن الحادي والعشرين» في الفترة الممتدة من 28 سبتمبر الي 02 اكتوبر 98. وقد تقرر ان تسبقه مؤتمرات اقليمية منها واحد في المنطقة العربية تقرر عقده في بيروت - لبيان في الفترة من 2 الي 5 / 03 / 98.

تحت عنوان «أي تعليم عال نريد للعالم العربي في القرن الحادي والعشرين»؟ وقد عهد بالتحضير لهذا المؤتمر الي مكتب اليونسكو الاقليمي في بيروت بالتعاون مع الجهات الوطنية الاقليمية والدولية المختصة وسيرعي المؤتمر فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية الذي سيفتتحه بمشاركة سعادة المدير العام لليونسكو.. ويهدف هذا المؤتمر الي وضع المبادئ التي ينبغي ان تشكل اساسا لاصلاحات انظمة التعليم العالي في المنظمة بغية تعزيز مساهمتها في بناء السلام علي اسس تنمية مستدامة مبنية علي تكافؤ الفرص والعدالة والحرية والتضامن كما يهدف الي صياغة وجهة نظر المنطقة حول المبادئ التي ينبغي ان تطبق علي هذه المسائل على المستوي العالمي بغية رفعها الي المؤتمر العالمي حول التعليم العالي المقرر عقده في باريس في نهاية شهر 9 / 98. ولتحقيق هذه الاهداف سيتمحور النقاش حول المحاور التالية :

– مـواءمـة التـعليم العـالي للاشكاليـات العـالميـة المعاصرة.

– مـواءمـة التـعليم العـالي لحـاجـيـات التنمـيـة الاقتصادية.

– مساهمة التعليم العالي في البحث العلمي وآفاق التعاون الاقليمي والدولي.

– مساهمة التعليم العالي في تطوير النظام التربوي بمجمله.

– النوعية في التعليم العالي.

– تمويل التعليم العالي وادارته.

بالاضافة الي عقد طاولتين مستديرتين تتعلق الاولي ب :

– سياسات الالتحاق والقبول: تعليم عال جماهيري ام جامعات للنخبة؟

– العولمة واشكالية تعريب التعليم العالي.

وسيشارك في هذا المؤتمر.

– خبـراء مدعـوون لتقديم وثائق عمل حـول المحاور المذكورة سلفا.

– ممثلون عن الجـهـات الوطنيـة (القطرية) المعنيـة بالتـعليم العـالي (المجـالس التـشـريعيـة – الوزارات – مجالس التعليم العالي) وعن اللجان الوطنية لليونسكو.

– ممثلون عن المنظمـات الاقليـمـيـة والدوليـة مـثل : اتحاد الجامعات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – المنظمة الاسـلامـيـة للتربية والعلوم والثقـافة ومكتب التربية العربي لدول الخليج العربي وغيرها.

– رؤساء جامعات المنطقة او ممثلون عنهم واساتذة وباحثون واداريون من مؤسسـات التـعليم العـالي في الدول العربية.

– ممثلون عن جمعيات خريجي التعليم العالي وعن المنظمات غير الحكومية.

– ممثلون عن الجهات المانحة الاقليمية والدولية.

– المسـؤولون عن كراسـي اليـونسكو وعن شـبكات توأمة الجامعات في المنظمة.

– اعـضـاء من اللجنة الاقليـمـيـة المكلفـة بتطبـيق الاتفـاقـيـة حـول الاعـتـراف بشـهـادات التـعليم العـالي ودراساته.

– ممثلون عن اتحادات طلاب التعليم العالي.

ونظرا لاهمـيـة التـعليم العـالي في تنمـيـة المنطقـة العربية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ولأهمية هذا المؤتمر في رسم السياسـة المستـقبلية للتـعليم العـالي، تأمل اليـونسكو مـشاركـة فاعلة من دول المنظمة لتـأمين نجاح هذا المؤتمر الهام.

صلة الحاج الشنقيطي بعلماء مصر

من خلال معجم المشائخ للزبيدي

(1212 ـ 1791م)

(وثائق تنشر لأول مرة)

منقولة عن مخطوطة المؤلف

حماه الله ولد السالم

باحث ـ جامعة انواكشوط

يهدف هذا العرض الموجز إلى مقاربة جملة النبذ والتراجم الشنقيطية(1) التي أوردها العالم واللغوي الضليع محمد بن محمد مرتضي الحسيني الزبيدي. (دفين القاهرة سنة 1212هـ 1791م) ضمن مصنفه «معجم المشائخ»، وهي نصوص تنشر هنا لأول مرة عن أصلها المخطوط بيد المؤلف(2).

وللوهلة الاولي يجب التأكيد علي ان صلة الشناقطة بعلماء المشرق العربي صلة قديمة متصلة. استطاع خلالها حجاج موريتانيا الامس استيعاب معطيات النسق الفكري المشرقي من خلال منظومة الاجازات التدريسية ذات القيمة العلمية الاكيدة التي كانت سائدة في حواضر المشرق العربي وخصوصا في مصر رغم تدهور الثقافة الاسلامية بشكل عام في ذلك العهد(3) غير انه منذ القرن الثاني عشر الهجري، حدث تحول في تلك العلاقة، بحيث أصبحت علاقة الشناقطة بالرافد المغربي (الفاسي) وتقاليده العلمية أكثر حميمية ورسوخا (4) بفعل تراجع مستوى الاجازات المشرقية، المصرية بشكل خاص. بحيث أصبحت تبركية لا تشيرإلى قيمة عملية محددة، رغم علو اسانيدها وحيوية انتشارها بين منتجي المعارف في تلك الفترة، ورغم ذلك فقد كانت لها اهميتها الحضارية الكبرى كعامل عزز من تواصل المشرق والمغرب، وحافظ على ذماء حركة الحديث في بلاد مصر التي برز فيها الزبيدي كأعظم مجيزبا لأسانيد التبركية خلال القرن الثامن عشر (18 م) (5).

وقد مثل الزبيدي محطة شبه اجبارية على طريق الحجاج الشناقطة، وعلى طريق غيرهم من حجاج

الآفاق(6)، وذلك بفعل المكانة التي حازها بوصفه لغويا ضليعا، ومحدثا متمكنا، فضلا عن سمعته كشيخ «سجادة» صوفية يتبرك به. الا انه يمكننا من خلال «معجم المشائخ»، أن نحصر الصلة بين الرجل والمعنيين، في مستويين اثنين هما : الإستجازة والتبرك.

ا- التبرك :

عمل الزبيدي في العقدين الاخيرين من حياته في تدبيج معجمه اللغوي الحافل «تاج العروس»، وقد مكنته صلته الوثيقة بالآفاقيين من جمع مواد لاحصر لها من الاعلام البشرية والجغرافية لمختلف البلدان التي يزوره أو يمر به حجاجها (7).

غير أنه كان لهذه العملية «التقنية» جانب آخر لايقل طرافة عن الأهمية العلمية للمصنف. ويتعلق الأمر بكون المعنيين اعتقدوا في الرجل الولاية الكاملة: كشفا صريحا وإخبارا بالمجهول، واطلاعا على مكنونات اخبار زواره حتى قبل أن يطلعوه عليها؟! وهي أمور يجملها في نص مشهور عبد الرحمن الجبرتي بقوله(8) : «... وصار له (= الزبيدي) عند اهل المغرب شهرة عظيمة ومنزلة كبيرة واعتقاد زائد وربما اعتقدوا فيه القطبانية العظمى، حتى أن أحدهم اذا ورد على مصر حاجا ولم يزره ولم يصله بشيئ لايكون حجه كاملا، فاذا ورد عليه أحدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته وأولاده وحفظ ذلك أو كتبه ويستخبر من هذا عن ذاك بلطف ورقة فاذا ورد عليه قادم من قابل، سأله عن اسمه وبلده فيقول فلان من بلدة كذا فلا يخلو إما أن يكون عرفه من غيره سابقا أو عرف جاره أو قريبه فيقول له: فلان طيب. فيقول نعم سيدي، ثم يسأل عن أخيه فلان وولده فلان وزوجته وبنته ويشير له باسم جاره وداره وماجاورها. فيقوم ذلك المغربي ويقعد ويقبل الارض تارة ويسجد تارة ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح. فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابه من الصباح إلى الغروب وكل من دخل منهم يقدم بين يدي نجواه شيئا ما: فضة أو تمرا أو شمعا. على قدر فقره أو غناه، وبعضهم ياتيه بمراسلات وصلات من أهل بلاده وعلمائها واعيانها ويلتمسون منه الأجوبة فمن ظفر منهم بقطعة ورق ولو بمقدار الانملة فكأنما ظفر بحق الخاتمة، وحفظها معه كالتميمة ويرى انه قد قبل حجه، والا فقد باء بالخيبة والندامة وتوجه عليه اللوم من أهل بلاده ودامت حسرته إلى يوم ميعاده...».

إن الجبرتي هنا لايذكر الشناقطة تحديدا لكنه من العادة، أنه يعني، عند ذكر المغاربة، كل القادمين من فضاء الغرب الاسلامي عموما، باستثناء السودانيين من بلاد التكرور (9).

وكيف كان الأمر فإن الشناقطة قد تميزوا عن غيرهم من حجاج المغرب الاسلامي، في أن زيارتهم للزبيدي كانت بغرض الافادة أوالاستجازة حصرا!.

اا-الاستجازة :

يعتبر الزبيدي أبرز المحدثين الذين جاؤو بعد ابن حجر العسقلاني. فلم يأت بعد(10)«ابن حجر، أعظم منه اطلاعا، وأوسع منه رواية وكلما ولا أعظم شهرة...» على حد تعبير المحدث المتمكن عبد الحي الكتاني، (ت 1962).ويتمثل تجديد الزبيدي، على مستوى مباحث الحديث، في انتهاجه طرقا «جديدة» لتدريس فنون

الحديث التي كانت متداولة في عصره، حيث انتقل بها من طور الرواية إلى طور الدراية. على حد تعبير الجبرتي(11) كما انه من وجه آخر قد أحيا ذماء معارف الحديث وطرق آدائها التي اندرست منذ اختفاء أجيال المحدثين في القرن التاسع. ولسنا بمعرض الحديث عن الظرفية والعوامل التي أدت بالزبيدي إلى الألمعية، أنما حسبنا أن نعرض من منظور تاريخ الذهنيات، لبعض دلالات اجازات التبرك التي قدمها هذا العالم المصري للوافدين عليه من بلاد شنقيط، الأمر الذي يستدعي دراسة الطابع العام للعلاقة التي ربطت بين الرجل والمعنيين، وإعطاء أمثلة على المجازين وظروف الإجازة ومستوى التلقي.

أ - المستوى العلمي للتلقي:

المفهوم أن الزبيدي كان يقدم للشناقطة اجازات ذات طابع تبركي بحديث يسمى المسلسل بالأولية. ورغم علو اسانيد الاجازة بالمسلسلات عموما، إلا أن مضمونها العلمي لايشير إلى قيمة معرفية كيفية.

ويتعلق الأمر بكون عهد حضور الشناقطة المعنيين إلى المشرق، وإلى مصر بالذات كان عصرا تميزت الحياة الفكرية فيه بطابع ويمكن تسميته تجوزا بالحقل الثقافي الوسط، وهو حقل يعرف حضور نزعات فكرية مختلفة تتبادل المواقع والآراء ويضفي بعضها المشروعية على البعض الآخر، في تكامل تربوي ومؤسسي راسخ تحتضنه تشكيلات اجتماعية مكينة، إلا أن المستوى العلمي السائد في هذا الحقل قد تراجع على مستوى الإجازات العلمية، التي تعكس في الغالب، المستوى المعرفي السائد، بحيث أصبحت تبركية لاتشير إلى قيمة محددة رغم علو اسانيدها. كما أضحى الطلاب ينالونها دون عناء.

وبيان ذلك ان الرحلات العلمية التي أضحت تنجز في ظل فترات ذات طابع استثنائي (مثل ماشاع في العهود العثمانية من اضطراب للامن على بعض مسالك الحج).

هذا بالاضافة إلى اختفاء جيل المحدثين المتمكنين ممن كانوا يقدمون اجازات تدريسية. وهي امور جعلت الذين يعملون الرحلة طلبا للعلم، يتكاسلون عن المقام الطويل لسماع المتون على المشائخ بغية الاجازة بها. مما جعلهم يقتصرون على التزود باجازات اقرب ماتكون إلى شكل: "اختزالات فكرية" المهم فيها عند المجازين ان تتيح الاتصال بأعلى الاسانيد العلمية المشورة دون أن يكون المجاز قد تعب فعلا في استظهار المتون المعروضة في اجازته. وازداد الوضع تدهورا عندما انثال الطلبة، تكريسا لهذا الضرب من التلقي، إلى استجازة المشائخ باسانيد المسلسلات التي لايكلف تلقيتها واستظهارها جهدا في تحصيلها ولا وقتا ينفق للمقام عند المجيزين لها. وتعود مظاهر هذا المستوى من التلقي إلى ضعف انتشار مصنفات الحديث، أو لصعوبة انتقالها بين البلدان أو حتى إلى كسل همم المتعلمين الذين يعمد أحدهم إلى جمع اوائل المصنفات في كراريس يحملها إلى المشائخ فيقرؤها عليهم ثم يرجع وهو يقول : "اروى المصنف الفلاني عن شيخي سماعا لأوله واجازة لباقيه...»(12)وبذا وجد طلاب العلم والفقهاء من أصحاب الأسفار، خلال عهود انحطاط المعارف الاسلامية في اجازات التبرك اختصارا للوقت وللمتون

معا. ومن مستوى التلقي هذا، أخذ الشناقطة جل الاجازات التبركية التي قدمها لهم الزبيدي.

ب - طابع الاجازات الزبيدية:

لم يسعفنا الحظ في الحصول على إحدى الاجازات التي قدمها الزبيدي لزائريه من الشناقطة، لكن جملة معطيات يمكن أن تقدم ايضاحات بهذا الشأن .

فعن متون الحديث وطرق عرضها والاجازة بها، يبدوا أن الزبيدي كان يملي على الجماعة، بعد قراءة شيئ من الصحيح، حديثا من المسلسلات وفضائل الأعمال ويسرد رجال سنده ورواته من حفظه ثم يجيز بهذا جل أو بعض الحاضرين، غير أن الحديث المسلسل بالأولية كان هو لب الاجازات التبركية التي يقدمها الزبيدي لزائريه، وهو مايؤكده الجبرتي بقوله أن الزبيدي «أصبح يملي على كل من قدم عليه الحديث المسلسل بالاولية، وهو حديث الرحمة برواته ومخرجيه، ويكتب له سندا بذلك واجازة وبسماع الحاضرين...» (13).

والظاهر من تراجم الشناقطة في «معجم المشائخ»، أن ذلك كان سبيلهم، في الغالب، للحصول على الاجازات الزبيدية!

ااا- طابع التراجم في معجم الزبيدي:

دبج الزبيدي في أواخر حياته مصنفا أسماه معجم المشائخ(14)، رتبه على الحروف، وذكر فيه طرقا من أخبار زائرية، ومن لقيهم من الأئمة والاصحاب، فيما ينيف على ستمائه ترجمة للآفاقيين منها مائة وخمسون ترجمة لحاج المغرب الاسلامي. ومن بين هؤلاء أورد الزبيدي تراجم لشناقطة لقوه واستمعوا لدروسه وأجازهم اجازات حافلة وذكرهم باسمائهم ونسبهم إلى اوطانهم، وقبائلهم، وقد يحدد طبيعة علاقته بكل منهم علي حده، ونوع الاجازة التي اعطاه، الي غير ذلك من التفاصيل.

ومن المعنيين اورد الزبيدي بضعة عشر شخصية موزعة على حواضر شنقيطية مختلفة، ومرتبطة بمجال جغرافي واسع متباين، وفي تراجم بعض تلك الشخصيات اضطراب في النسبة إلى محتدها القبلي ومواطنها الأصلية.

الا ان ذلك لايغض من دقة الرجل في التعرف علي المعنيين، بل أنه كان دقيقا في تصنيفه لزائريه، سواء من حيث درجة رسوخهم في معارف عصرهم، أو من حيث طبيعة مكانتهم المعرفية، أو غير ذلك من السمات الذاتية لشخصياتهم.

ولذلك فانه تلفت الناظر لاول وهلة الي تراجم المعنيين، دلالات التحلية والتلقيب التي قيم بهما الزبيدي الشناقطة الذين لقيهم وترجم لهم (15) ويمكن، بادي الرأي، أن نحكم بأنه كان دقيقا في عملية القييم هذه، على الأقل، حسب المعايير التي اختارها وبها عمل في معجمه الحافل.

فهو يميز بين الشناقطة الذين أجازهم، حسب مستوياتهم العلمية وبالفاظ وصفات تبرز دقته في استخدام موروث الثقافة العثمانية الذي يمده بمعجم تصنيفي خصب، فهو على سبيل المثال، يميز الفقهاء المتمكنين بتحلية من قبيل : «الشيخ الصالح، الولي العارف العلامة»، في حين أنه يقدم المتصوفة ومن في معناهم من المجاذيب، بصفات مثل «الشيخ الصالح»

«الشاب الصالح» حصرا. أما متوسطي الثقافة فيكثر من تعريف كل فرد منهم على حدة، «بالشيخ الفاضل»، أو مايشابه ذلك من الالقاب، ولاتكاد عملية التمييز هذه بين معارف المعنيين، تخرج على الضوابط التي بها يعرفون في الدائرة العلمية الشنقيطية. ويتأكد الأمر من استعراض جملة التراجم التي دبجها الرجل عن المعنيين في معجمه المذكور.

- علويون:

1 – احمد الحبيب بن المختار العلوي:(16) ورد على الزبيدي سنة 1193هـ، وسمع حديث الاولية، ومجالس من (صحيح) البخاري، ولازمه كثيرا.

2 – عمر بن المختار الشنقيطي (17) : لم ينسبه الزبيدي الي قبيلة معينة. ولكنه ذكر أن المعني ورد على مصر سنة 1174هـ وهو الذي أجاز الزبيدي نفسه ومجموعة من وجوه الطريقة الوفائية (الشاذلية)، والقي في مجلسهم (ولعله شرح) داليه شيخهم سيدي على وفا وأخبرهم أن هذه القصيدة منتشرة انذاك في المدارس "المحاظر" الشنقيطية ثم توجه برسم الحج وعاد إلى طرابلس وبها مات بالقرب من مقام أحمد زروق.

والمفهوم أن المعني هو نفسه الذي تسميه المصادر المحلية (18) باعمر (=عمر) بن سيد أحمد (عله جده) ابن صنب العلوي، ونذكر أيضا أنه هو المعروف في طرابلس باسم سيدي اعمر الشنقيطي المدفون قرب مقام احمد زروق، كما تشير نفس المصادر إلى أن المعني تلقي الشاذلية في بلاد شنقيط عن الشيخ المختار بن أحمد ابن عثمان التنواجيوي ( )، ثم اعمل الرحلة صوب الحجاز فلقي القطب السمان ( ) وأعاد على يديه تلقي أوراده الشاذلية، ثم توجه نحو طرابلس وفيها مات ودفن في المكان المشار اليه.

- كنتيون:

كانت للزبيدي صلات حميمة مع أعيان الزاوية الكنتية القائمة في واحات اتوات (19). الصحراوية، حيث وفد عليه اعيان هذه الزاوية وراسل منهم آخرين في مواطنهم وذكر في تراجمهم بضعة شخصيات.

3 – أحمد بن محمد بن عبد الرحمن أبي نعامة الكنتي التواتي الملقب بالبكاي (20): سمع به الزبيدي ووصلته أخباره، وكاتبه وعقد معه "عقد الاخوة"، على حد تعبيره، وبعد ورود البكاي على مصر حاجا سنة 1197هـ، ازداد اعجاب الزبيدي به «لما رأي من محاسنه ومكارم أخلاقه» ثم جدد معه «عقد الاخوة والمحبة»، ثم كتب له الاجازة، وقرأ عليه أشياء واستمرت المراسلات والمهاداة بين الرجلين منذ أن رجع أبو نعامة إلى موطنه.

4 – ادريس بن عمر بن عبد القادر التواتي (21)،ورد على مصر مرتين أولاهما سنة 1186 والثانية سنة 1194هـ، في الاولي لقي الزبيدي وتلقي عنه بعض شروح القاموس، وفي الثانية قرأ عليه بعض الدلائل والأحزاب، وأعجب بشرحه للاحياء للغزالي، وأسف لعدم حصوله على نسخة لنفسه، ربما لأن الشرح كان إذ ذاك في مسودته الأولي.

أجازه الزبيدي في كراسة عمم فيها له ولاولاده واستمر التواتي أيضا، مقفله من مصر في طريقه إلى توات، يراسل مجيزه بالمكاتبات وفيها يصف الزبيدي بشيخه وسيده!

– عبد الله بن محمد الكنتاوي المغربي: (22) ورد علي مصر مرتين، اولاهما مع الركب التواتي سنة 1194هـ وفيها سمع من لفظ الزبيدي الاولية، والشعر (؟) وحديث "انما الاعمال بالنيات..." ولازمه في اكثر الاوقات.

والمعني نسب كسابقيه إلى قبيلة كنته الشنقيطية ذات الأصل العقبي الأصيل، رغم ماقد يبدوا من تشابه، في الاسم، بين اسم هذه القبيلة العربية الصحراوية، ونسبة أخرى هي "الكثناوي" بالثاء وتعني المنسوب إلى منطقة كتسنه (من شمال نيجيريا الحالية) التي ينطق العرب اسمها ويكتبونه بصيغتين مختلفتين هما : كثنه (=كثناوي) وكشنه (كشناوي)(23) .

أما نسبة الكنتاوي الشنقيطي ألى المغرب، فتعني عند الزبيدي وكل كتاب المشرق، جماع سكان المناطق الواقعة من طرابلس غربا إلى حدود مصب نهر السينغال في اقصي الجنوب الموريتاني الحالي (24).

– عمر بن عبد الرحمن بن عبد القادر التواتي المغربي(25) ذكر الزبيدي أن المعني سمع مع ابن عمه ادريس بن عمر المذكور آنفا جملة اشياء (؟) وكتب اسمه في الاجازة (علهما اجيزا معا) وكان ذلك في حدود سنة 95 - 1196هـ.

– أحمد بن عمر الكنتاوي المغربي : (26) ضبط الزبيدي نسبة لصيغته "الكنتاوي" بفتح الكاف، ولعله تصرف من المترجم في ضبط اسم القبيلة المعنية.

ورد على الزبيدي سنة 1195هـ، فسمع عليه في 26 صفر منها، الاولية واول حديث البخاري مع جماعة وأجاز لهم خطا».

– عمر بن مصطفي بن محمد بن عمر بن زكرياء بن داوود بن صالح الكنتاوي المالكي:(27)

ورد على مصر حاجا سنة 1198هـ فسمع من الزبيدي، في الرابع عشرى رجب، منها، الاولية (وبعض الشعر(؟)، وسرد كتاب الشفا للقافي عياض، وسمع منه أشياء وقرأ عليه في الصحيح وغيره وتلقي منه الاجازة.

- مغربيون :

تحيل هذه النسبة إلى عشائر المغافرة وهم إحدى أهم فصائل الاوداية من قبائل بني حسان المعقلية التي تغلغلت إلى موريتانيا منذ القرن الثامن الهجري (14م) وقارب انتشارها في المنطقة قرابة القرن العاشر (16م) والزبيدي يورد ذكرا لبعض من لقيهم من حاج المغافرة، وينسبهم إلى فصيلهم القبلي المجمل، وقد يضيف إلى ذلك ما قد يحدد قبيلة كل مترجم على حده.

واجتهادنا أن معظم المعنيين، وغيرهم ممن أعملوا الرحلة للحج من القبائل الحسانية، يمثلون جانبا من ظاهرة التدين العارم ووضع السلاح، لاعن غلبة، والتمكن من معارف العصر الاسلامية وقيمها ومثلها التي انتشرت بين القبائل العربية (الحسانية المغفرية) في شرق موريتانيا الحالية (=مثل أودلا الناصر، وأولاد داوود، وأولاد بوفايده، وأولاد بله = الحجاج)، بل إننا لنجزم ان ظاهرة الانزواء للعبادة وتلقي المعارف وتبثها قد (انجزها) المغافرة وعرفت بينهم قبل كل القبائل الموريتانية الاخرى. ولا أدل على ذلك من أن المسمي بالحاج اندغمحمد بن ملوك الدليمي (= الحساني) كان

أول من لقب بالبزّاوي حسب أقدم الاشارات الواردة في مصادر المنطقة (28).

كما أن الحاج عبد الوهاب العباسي الناصري (29) جد محمد صالح مؤلف «الحسوة البيسانية» كان أول من تمحض طوعا لخفارة حاج البيت الحرام من أعيان علماء البلاد مثل (بارك الله اليعقوبي) ، كما أنه قد أسس منذ ملتقي القرن التاسع والعشار الهجريين (15 - 16 م) أولي تقاليد (التوبة الطوعية للتعلم والعبادة، بين بني عمومته من المغافرة، قرب أحواز تيشيت! (30).

وماهمنا في هذا السياق أن تراجم المغافرة التي أورد الزبيدي تشير إلى تنامي ظاهرة الحج بين المعنيين في بلاد شنقيط، إمعانا منهم في التخلص من ماضي الحروب والفروسية والصراعات الدامية في الصحراء. الأمر الذي جعلهم في مقدمة النخبة العلمية الشنقيطية وعرض تراجم المغفريين، في سياقنا، أكبر شاهد على ذلك:

- عمر بن محمد المغفري (31) ورد علي مصر حاجا سنة 1193هـ وسمع من الزبيدي الاولية من يوم الاربعاء لتسع بقين من جمادي الأخيرة منها، ثم توجه للحج وعاد ليلازمة في اشياء سمعها منه، ثم تلقي الاجازة بعد ذلك.

ولا تساعد المصادر المحلية (الشنقيطية) في ايراد مايساعد في معرفة المعني معرفة دقيقة. غير ان المترجم ربما يكون هو نفسه المسمى عمر بن محمد بن علي الحساني دفين طرابلس واحد اعلامها الذين روى عنهم فقيه البلدة احمد الطبولي الطرابلسي الذي ترجم له الزبيدي في نفس المعجم وفي فترة قريبة زمنيا من عهد الحساني المذكور (32).

- عبد الله بن احمد المغفري الشنقيطي: وصفه الزبيدي بانه شيخ فاضل، وانه ورد عليه سنة 1192هـ فسمع فيه الاولية في يوم الاربعاء 21 جمادى الاخيرة وتوجه الي الحرمين ثم عاد فحضر عليه دروسا وسمع اشياء. ولم يذكر الزبيدي ان قدم للمترجم اجازة متصلة.

افرادا من قبائل شتى:

اورد الزبيدي تراجم لشخصيات شنقيطية اخري لقيته واجازها ونسبها احيانا نسبة مجملة الي شنقيط، والظاهر انه يعني بذلك القطر كله بدليل ما استدركه اكثر من مرة علي صاحب القاموس المحيط، بشأن إسم المدينة والمصر المنسوب اليها(34).

والظاهر ان دقة الزبيدي في ضبط اسماء وانساب زواره وصلتهم بقبائلهم واوطانهم، تظل وثيقة الصلة بدرجة احتكاكه بمن يترجم لهم، وبمستوى تدوينه لنتف اخبارهم في كنانيشه المختلفة التي جمع منها معجمه في أخريات ايامه..(35).

ولادليل علي ذلك انه فصل نسبة سيد احمد الحبيب العلوي لما له به من وثيق الاتصال وكحاله مع بعض اعلام الزاوية الكنتية في "آقبلي" بتوات. هذا في الوقت الذي نسب عمر بن المختار الشنقيطي الي القطر نسبة مجملة، بالرغم من أن وجوه الزاوية الوفائية (الشاذلية) قد أفردوه بلقيا خاصة.

-احمد بن المختار الشنقيطي (36): ورد من

طرابلس حاجا في رمضان سنة 1202هـ وسمع من الزبيدي اشياء وسأله عن مسائل واجابه عن بعضها.

– عبد الرشيد الشنقيطي(37) من المجاورين بالمدينة المنورة، وسمع من الزبيدي اشياء. وكان وصوله الي مصر سنة 1199هـ ومعه صورة فتوى بشأن وقف الشناقطة المجاورين بالمدينة، وقد كتب عليها الزبيدي مايدعم الحق الشنقيطي في النازلة. وكذا كتب سلطان المغرب آنذاك ومعه بعض علماء المغرب كالتاودي بن سوده وجزموا بأن الشناقطة هم من خلفي المغاربة(؟!) ولهم الحق في قسطهم من وقف اهل تلك الناحية.

ونكاد نجزم ان عبد الرشيد هو من اهل حساني ادليمي نظرا لان اسمه يشيع في مشجرات انساب هذه القبيلة الصحراوية – كما ان ظاهرة الهجرة من حمل السلاح الي تقاليد التعلم والدين كانت رائجة كما قدمنا وبشكل مبكر بين افراد هذه القبيلة المحاربة (38).

- سباعيون :

اصحاب هذه النسبة ينتمون في العادة الي قبيلة اولاد أبي السباع الشنقيطية رغم مالهذه القبيلة من امتداد حضاري كبير في المغرب الحالي، ابرز مثال عليه العلماء المتمكنون من امثال عبد المعطي السباعي والجيلالي السباعي، وكلاهما من اساطين العلم في عصره، ولهما وثيق الاتصال بعلماء موريتانيا الامس، سيما لمجيدري ابن حبيب الله اليعقوبي وأضرابه (40).

– ابراهيم بن الحسن السباعي، ورد علي مصر في اوائل 1205هـ فسمع من الزبيدي اشياء.

– احمد بن محمد السباعي (عرف بابن الحاج) : توطن برسيد (؟) بالصحراء سمع من الزبيدي الاولية في يوم الجمعة 21 رجب سنة 1192.

- جكنيون:

– عبد الودود العطواني(41) : لغي الزبيدي وسمع منه المسلسل بالاولية في يوم الثلاثاء 29 صفر سنة 1193 هـ وأجازهم في نفس اليوم.

وقد نسبه الزبيدي عطوانيا بينما نسبته الصحيحة انما هي الي قبيلة تجكانت الشنقيطية. هذا بالرغم اننا واجدون النسبة العطوانية للمترجم ولوالده تتكرر عند العالم والنسابة الشنقيطي محمد صالح بن عبد الوهاب العباسي الناصري (ت 1271) في مصنفه المشهور "الحسوة البيسانية في علم الانساب الحسانية" وفيه يذكر ان اسرة اهل المختار من اولاد اعطي الذين لاذكر لهم في العرب لكن منهم الحاج المختار وابناؤه العلماء العاملون المشهورون اصحاب المدرسة والتلامذة والرياسة الدينية والدنيوية الذين تفتخربهم الرواية والعرب لكن السيد سيدات بن المصطفي الابييري، في نسخته من الحسوة(42) يضيف هامشا علي كلام مؤلفها مفاده ان نسبه آل الحاج المختار وأبناءه إلي أولاد أعطي فيه تسامح، علي حد تعبيره!

ويؤكد ان عبد الودود ووالده انما ينتمون الي محتدهم الحقيقي وهو عشيرة "اديشف" الجكنية المعروفة. واجتهادنا ان الامر هو كما ساقه ناسخ الحسوة ذاك، بدليل ان نسبة المترجم الجكنية يؤديها ماذكره الكتاني في معرض حديثه عن فهرست ابي سالم

العياشي المسماة مسالك الهداية الي معالم الرواية، من ان العالم المغربي التهامي بن عمرو الرباطي (ت 1240هـ) يرويها (الفهرست) عن اعجوبة دهره عبد الله بن محمد الزينبي عن عبد الودود الصحراوي عن ابي العباس احمد الخطاط عن ابن ناصر عن ابي سالم ... (43).

وفي موضع آخر يورد الكتاني نفس السند وبزيادة اخرى اكثر تفصيلا، مفادها ان الفهرست المذكورة يرويها التهامي عن عبد الله الجكني الصحراوي عن والده عبد الودود الجكني الصحراوي...) (44).

وبغض النظر عن هذه الفيذ المختلفة، وعن طابعها العام وسياقها وظروف تدبيجها، فان السؤال الذي يطرح نفسه هو اشكال تأثير المسلسلات الدبيدية في اوساط النخبة المتعلمة ببلاد شنقيط.

ونعتقد ان الاجابة عن هذا السؤال رهينة بمدى توفرنا علي معطيات قابلة للمقارنة، من التراث الشنقيطي علي مستوى الاجازات وهو امر لايزال يعيد المنال سيما بالنسبة لمنطقة "الگبلة" التي لاتمتلك تقاليد في نظم الاجازات والاسانيد بعكس حواضر الشرق الموريتانية التي رسخت في دوائرها العلمية تقاليد الاجازات المحلية رسوخا يجعلها لاتصل الي المستويات الخارجة عن النطاق الشنقيطي الا بعد طبقات من المسندين المتمكنين في مدن كولاتة وتيشيت ومناطق الركيبه والحوض.

وتبقي الاجابة الحاسمة بهذا الشأن رهينة بما يستجد في حقل الدراسات البيبليوغرافية المتعلقة بالموضوع.

الاشارات والثوابت:

1 – نستخدم تسمية الشناقطة وبلاد شنقيط، هنا من باب استخدام المفاهيم والمصطلحات قياسا بزمانها، ولأن القرن 12هـ / 18 م كان عهد انتشار التسميتين المشار اليها، بوصفهما علما علي البلاد وسكانها.

2 – اكتشفت هذه النصوص اثناء رحلة الي الاراضي المقدسة في رمضان 1993م. ضمن مخطوطات مكتبة عارف حكمت الخاصة في المدينة المنورة، وقد رفض القائمون علي المكتبة تصوير المخطوطة رفضا باتا، فنقلت جملة التراجم الشنقيطية الواردة ضمن المجلد الاول الموجود من المعجم والمخطوط بيد المؤلف، والظاهر أن الامر يتعلق بالمسودة الاولي من العمل.

3 – تعود بدايات التواصل الموريتاني مع المشرق الي نهاية القرن التاسع (15م) واستمر الشناقطة منذ ذلك العهد يرحلون شرقا ويعودون بالمتون العلمية وباجازات تتضمن أسانيد عالية، مرغوبة ومنقولة بجهد علمي حقيقي، وقد انتهت هذه المرحلة منذ منتصف القرن 12 هـ .

راجع: حماه الله ولد السالم، العلاقات الفكرية بين موريتانيا والمشرق العربي (1493 - 1923) اطروحة ماجستير 1995 عمل قيد النشر)

4 – يعود الامر الي تراجع مستوي الاجازة المشرقية لصالح تطور مثيلتها المغربية التي اضحت تقدم للمشارقة مؤلفات اعلامهم من طريق الشبكات الاسنادية المغربية.. راجع: ولد السالم، العلاقات الفكرية، معهد الدراسات العربية ، القاهرة (1995) (الفصل الثالث)

5 – راجع : بيتر جران، الجذور الاسلامية للرأسمالية (القاهرة، 1554) ص 100

6 – كانت مصر ممرا شبه إجباري لحجاج افريقيا العربية والسودانية، الا ماكان من استثناآت قليلة في فترات مختلفة راجع: ولد السالم (حماه الله) " مراجعات اولية حول اوضاع الحجاز في الرحلات الحجية الشنقيطية، مجلة الدارة، الينة 22 العدد 4لسنة 1417ه الرياض ص (27-64)

7 – را جع جران "الجذور الاسلامية للرأسمالية.. م س

8 – عجائب الآثار: (طبعة القاهرة، نشر دار الانوار المحمدية. د . ت) ج 2 ص 108 - 109.

9 – أثار إشكال العلاقة بين حاج شنقيط (موريتانيا) والفضائين المغاربي والسوداني، مشاكل لاحصر لها بين المجاورين في البلاد المقدسة

را : ولد السالم، مراجعات، م. س. ص 42-50

10- فهرس الفهارس.. تحقيق احسان عباس (بيروت، دار الغرب الاسلامي 1992 - 1986) ج 1 ص : 528 .

11 - عجائب الآثار، م ، س، ج2، ص 293-294.

12 - الكتاني، فهرس الفهارس، م . س ، 12 ص : 84.

13 - الجبرتي، عجائب الآثار م، س ، ج 2 ص : 293 - 294.

14 - يسمي ايضا بالمعجم المختصر، ولعله إسم المعجم الصغير الذي لايزيد عن بضع كراسات تحوي عشرات الاسماء التي ذكرها الزبيدي تعدادا لاسماء مشائخه وتلاميذه ومستجيزيه، را: الكتاني، فهرس، م، سم، ج. ص س

15 - يتضح من هذه الالقاب ان الزبيدي كان يمتاح من تقاليد (المعجم) الثقافي العثماني الخصب.

16 - را معجم المشائخ ، ج 1 ، ص: 18.

17 - نفس المصدر، 1 / 121.

18 - ابن اطوير الجنه (الطالب احمد) . الرحلة المسماة: المنا و لنه (مخطوط IMRS)،

19 - عن تأسيس هذه الزاوية راجع : سيدي محمد الكنتي (الخليفة): الرسالة الغلاوية، تحقيق ودراسة حماه الله ولد السالم، (عمل غير منشور) الفصل الخاص بتاريخ كنته.

20 - را : معجم المشائخ، م، س، ج1، ص : 18.

21 - نفس المصدر 1 / 24 - 25.

22 - نفسه - 1 / 51 - 52.

23 - يتضح ذلك من مراجعة المصادر الجغرافية العربية، سيما الكتابات المصرية في القرن 12 و 13هـ

24 - هذا الرأي للاستاذ محمد بن مولود بن داداه (الشنافي) في مقابلة معه في عين السلامه بتاريخ 30 / 10 / 97.

25 - را : معجم المشائخ ، م. س. 1 / 121

26 - نفسه 1 / 15

27 - نفسه 1 / 122

28 - راجع مثلا : السعدي (عبد الرحمن) تاريخ السودان، (طبعة باريس 1981) ص 31 (من النص العربي).

29 - فقيه ضليع ونسابة خبير يعتبر اكبر مؤرخي موريتانيا قبل الاستعمار. تلقي معارفه الواسعة من خلال جولات علها قادته، في رحلة حج لانعرف عنها شيئا، الي المشرق وامصار الشمال الافريقي. دبج انساب وايام قبائل بني حسان العربية في كتابه الحسوة. وجمع مصنفا في اخبار قبائل صنهاجة والمجموعات العربية غير الحسانية، لانزال في طلابه.

30- الولاتي الناصري (محمد صالح بن عبد الوهاب العباسي)، الحسوة البيسانية. مخطوط (نسخة خاصة).

31- معجم المشائخ، م، س، ج/1 ص : 90.

32 - نفسه /راجع تراجم الاحمدين)

33 - نفسه 1 / 58.

34 - استطرد ذلك احمد بن الامين في كتابه الوسيط، (طبعة القاهرة، انواكشوط 1989) ص 422 .

35 - المفهوم ان الزبيدي قد دبج معجمه علي مراحل من اولها جمع مواد عن الآفاقيين في كنانيش مختلفة، قبل ان ينظم النسخة التي رجعنا اليها، حسب الترتيب الابجدي.

36 - معجم المشائخ ، م، س، ج1 /ص19

37 - نفسه ، ج1 ص ص 78-79

38 - راجع الحسوة، (ذكر انساب اولاد ادليم)

ص 298 (حيث 39- راجع الكتاني، فهرس ، م. س . ج2 يرد ذكر صالح الفلاني بالمجيدري، والعلامة السباعي)

40 - الترجمتان واردتان في معجم المشائخ، ج1 ص ص 17 -24

41 - معجم المشائخ، ج1-ص48

42 -من (نسخة شخصية): (ذكر أولاد أعطي ضمن مجموعات أولاد رزق في الشرق الموريتاني)!

43 - فهرس الفهارس. ج2 ص438

44 - فهرس الفهارس ، م. س. ج2 ص 432

ظاهرة اللـــــثام عند سكـــــان الصـــــحراء خلال العصر الوسيط

النانى ولد الحسين

باحث ـ جامعة انواكشوط

لفتت ظاهرة اللثام عند صنهاجة الصحراء خلال الفترة الوسيطة انتباه معظم الكتاب الذين تحدثوا عن تلك المنطقة فحاول بعضهم البحث عن اسباب ذيوعها بين السكان واظهروا مدى ارتباطهم بهذه الظاهرة مما جعلهم يميزون صنهاجة الصحراء عن باقي صنهاجة في الغرب الكبير باسم «الملثمين»، بل ان تأثير استخدام اللثام تجاوز السكان ليشكل المجال الجغرافي لمستخدميه حيث عرف الجزء الغربي من الصحراء الافريقية الكبرى في تلك الكتابات تحت اسم «صحراء الملثمين».

واللثام او النقاب هو عبارة عن قطعة من الثياب كان سكان المنطقة يستخدمونها لتكسو الوجه كله باستثناء محاجر العينين، وكان يعرف بلغتهم آنذاك «اكلموز»(1)، وكان الرجال منهم مرتبطون به اكثر من اي ثوب آخر بحيث لم يكونوا يفارقونه في الليل ولا في النهار ولاحتى حين يخلدون الي الراحة بين ذويهم.

وقد اختلف كتاب الفترة الوسيطة حول الاسباب الكامنة وراء حرص صنهاجة الصحراء علي ملازمة اللثام، وتضاربت آراؤهم فيما يتعلق بذلك الموضوع، في حين اكتفي بعضهم بوصف الظاهرة من دون ان يكلف نفسه عناء الخوض من اجل التعرف علي اسباب رسوخها مع استغرابهم لها.

ولعل من بين أقدم الكتاب الذين تعرضوا للحديث عن اللثام في هذه المنطقة، ممن وصلتنا كتاباتهم، اليعقوبي الذي كان يكتب في أواخر القرن 3 هـ / 9 م نبية، فذكر بأنها مجموعة من قبائل صنهاجة كانت في عهده تقطن المنطقة الفصلة بين سجلماسة وبلاد

السودان، فوصفها بقوله : «... شأنهم كلهم ان يتلثموا بعمائمهم سنة فيهم...»(2)، فمن الواضح اذن ان ظاهرة اللثام اقدم عند تلك المجموعات من عهد المؤلف، لذلك ذكر بأنها «سنة فيهم».

وخلال القرن 10 م لاحظ رحالة آخر ادعى انه زار المنطقة، هو ابن حوقل تلك الظاهرة فكتب عن بني مسوفة يقول : «ولم تر لاحدهم ولا لصنهاجة مذ كانت، من وجوههم غير عيونهم وذلك انهم يتلثمون وهم اطفال وينشأون على ذلك...»(3).

اما ابو عبيد البكري في القرن 11 م، فقد وصف التزام الملثمين باللثام بقوله: «... قبائل الصحراء يتلزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لايبدوا منه الا محاجر عينيه، ولايفارقون ذلك في حال من الأحوال، ولايميز رجل منهم وليه ولاحميه إلا إذا تنقب وكذلك في المعارض إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع وصار ذلك الزم لهم من جلودهم...»(4).

أما الكتاب الذين تجاوزوا الوصف وبذلوا من أجل الوقوف على أسباب التزام صنهاجيي الصحراء باللثام دون سواهم من الشعوب الاخرى، فنذكر من بينهم مؤلف كتاب الحلل الموشية الذي يعتقد بأنهم هم اول من تلثم، وربط لثامهم بموثقة من نسبهم، حيث يرى بأنهم من حمير، وانهم تعرضوا بعد وفاته لمضايقات من طرف خليفته فلجأ رجالهم الي اللثام – حسب صاحب الحلل – من أجل أن يخفوا انفسهم، وكان وقتها زيا خاصا بالنساء في اليمن، ثم «... فروا بانفسهم... وانتقلوا من قطر إلى قطر ومن مكان الي مكان حتى صاروا بالمغرب الاقصي ببلاد البربر، فاحتلوا به واستوطنوه وصار اللثام زيهم الذي اكرمهم الله به ونجاهم من عدوهم، فاستحسنوه ولازموه وصار زيا لهم ولاعقابهم لايفارقونه الي هذا العهد...» (5).

واورد ابن الاثير سببين لهذه الظاهرة، أحدهما ذكر أنه مرتبط بالظروف الطبيعية الخاصة بمنطقة الصحراء، حيث كان مناخها يتميز بارتفاع درجات الحرارة بشكل كبير نسبيا خلال فصل الصيف الحار والجاف، ثم انها كانت تنخفض خلال فصل الشتاء البارد والجاف، وأن تلك الوضعية فرضت على البدو. وهناك الذين لم يكونوا يطمئنون إلى مكان، وتقوم حياتهم علي التنقل، والتكيف مع تلك الظروف بغض النظر عن كونهم من صنهاجة أو غيرها، لذلك لم يربط ابن الاثير اللثام بصنهاجة فحسب، وانما ايضا بسكان شبه الجزيرة العربية، الذين كانت بلادهم وظروف معاشهم مشابهة لبلاد ونمط حياة الملثمين، فكتب عن صنهاجة يقول : «... وكانوا قبل ان يملكوا يتلثمون في الصحراء من الحر والبرد مثل مايفعل العرب...» (6)، لكن ماكان يميزالملثمين عن عرب الجزيرة في هذه الحالة، هو أن اللثام كان بالنسبة لسكان صحراء الملثمين عادة لايفارقونها حتى ولو لم تكن تدعوا الحاجة إليها.

أما السبب الثاني بالنسبة لابن الاثير فيورده على شكل رواية مجملها ان حيا من لمتونة باغته العدو اثناء غياب الرجال ولم يكن به سوى النساء والاطفال والشيوخ، وان احد المسنين اشار الي النساء ان يتلثمن قبل ان يصل العدو اليهم وان يحملن السلاح كى يعتقدو انهم رجال فلما اقترب منهم الاعداء رأوا جموعا كثيرة، ظنوها من المقاتلين، فقال بعضهم «... هؤلاء

عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي ان نسوق النعم ونمضي، فان تبعونا قاتلناهم خارجا عن حرمهم...» (7)، واثناء جمع الاعداء للحيوانات اقبل الرجال مسلحين فاصبح الاعداء بينهم والنساء المسلحات فاعمل فيهم الجميع السيوف وقتلوا معظمهم وانهزم الباقي، وكان عدد من قتل منهم من طرف النساء اكثر، فكان ذلك سببا في ملازمتهم اللثام «... فمن ذلك الوقت اجمعوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، فلايزيلونه ليلا ولانهارا ...»(8).

أما ابن خلكان الذي نقل عن ابن الاثير الكثير مماكتبه عن الصحراء، فانه اضاف سببا آخر، وغير عناصر الرواية السالفة الذكر مع ايراده لها مفصلة، وهي تفسيره الجديد للظاهرة فانه يرى بان الملثمين التزموا باللثام بعد الحاق النساء الهزيمة بالعدو... تبركا بما حصل لهم من الظفر بالعدو...» (9)، ثم انه ربط اللثام عندهم في محاولة اخرى من طرفه من اجل تفسير اسباب التزامهم به بعامل وراثي، حيث ذكر بان خواص حمير الذين لم يكن يشك في انهم اسلاف الملثمين كانوا يتلثمون اتقاء للحر والبرد، فعمت الظاهرة محاكاة اتباعهم لهم حتي شملت العامة(10).

ويفيد ابن حوقل بان الملثمين كانوا ينظرون الي الفم كعورة تستحق بالنسبة لهم الستر، وبسبب ذلك – حسبه – هو ان «مايخرج منه عندهم أنتن مما يخرج من العورة...« (11)، ولايبتعد البكري عنه كثيرا في هذا التفسير، وان كان يضيف بأنهم كانوا يسخرون من الامم التي لم يكن رجالها يتلثمون، ويشبهون افواههم ب «افواه الذئاب» (12).

ويرى بعض الدارسين بان حرص الملثمين على ارتداء اللثام وتغطية الفم بشكل دائم يعود بالدرجة الاولي الي المعتقدات السحرية التي كانت سائدة بينهم قبل انتشار الاسلام، والتي كان من ضمنها ان الجن كانوا ينثرون الامراض في الفضاء وان تلك الامراض لاتدخل الي الجسم الا عن طريق منافذه الاساسية، وبصفة خاصة منها الفم والانف، وبالتالي كان من اللازم عليهم – وفق معتقداتهم – ان يغطوا تلك المواقع من اجسامهم حتي لاتضرهم الارواح الشريرة، وكان الأمر خاصا بالرجال نتيجة لان المرأة كانت في نظرهم ذات صلة بالجن عن طريق السحر، مما جعل النساء في نظرهم بمنأى عن الاضرار التي قد يتعرض لها الرجال في حالة عدم تلثمهم(13).

أما دلافوس فانه يعتقد بان الملثمين خلال العصر الوسيط متحدرون من سكان الصحراء القدماء الذين كانوا قبل تصحر المنطقة مستقرين يمارسون الزراعة، وبعد التحول المناخي الذي طرأ تدريجيا عليها، فانهم لم يهاجروا، وانما اكتفوا بتغيير نمط حياتهم بشكل تدريجي متماش مع واقع البيئة الجديدة، وانتهى بهم التكيف الي ان اصبحوا بدوا رحلا، فكان ارتداء اللثام والتمسك به من اشكال التأقلم مع المحيط الذي فرض نفسه عليهم(14).

وبصفة عامة يمكننا القول بأن الرجل الصحراوي الذي كان يقطع المسافات الطوال بحثا عن ضالته أو ممارسا لتجارة القوافل أو غير ذلك من أسباب أسفاره وانشطته اليومية في منطقة تندر فيها المياه وتتحرك فيها الرياح ذات السرعة المرتفعة حامله الرمال على شكل

زوابع رملية، فضلا عن ارتفاع درجات الحرارة كان من الطبيعي بالنسبة له أن يحتمي باللثام من لفح الشمس والرياح المعطشة، وبمرور الزمن ارتبط اللثام بحياته، فنسخت حوله الاساطير التي ربما كان سكان الصحراء خلال الفترة الوسيطة يؤمنون بفحواها.

ولقد استرعي ارتباط رجال صنهاجة الصحراء باللثام خلال العصر الوسيط اهتمام الشعراء، فاعتبره بعضهم ميزة وفضلية تستحق ان تبين، من ذلك مثلا قول الفقيه ابي محمد بن حامد يمدح يوسف بن تاشفين :

قوم لهم شرف العلا من حمير
وان انتموا صنهاجة فهم هم
لما حوو احراز كل فضيلة
غلب الحياء عليهم فتلثموا (15)

وقال شاعر آخر يمدح الملثمين:

إذا التلثموا بالريط خلت وجوههم
لما كنت غرا بالسحاب مثلما
او التأموا بالساريات وأبرزوا
عيون الافاعي من جلود الاراقم (16).

وقال حيلاص، الشاعر الرندي يمدح احد امراء الملثمين بالاندلس:

ولو لم تكن كالبدر نورا ورفعة
لما كنت غرا بالسحاب ملثما
وماذاك الا للنوال علامة
كذا القطر مهمالثم الافق انهمي(17).

وفي نفس الوقت استخدم بعض الشعراء اللثام من اجل ان يذموا المرابطين بالتزامهم به، ومن بين اولئك الشعراء من سبق ان مدحهم باستخدامه ثم هجاهم به بعد ذلك مثل ابي محمد بن حامد السالف الذكر، حيث قال هاجيا له:

ان المرابط باخل بنواله
لكنه بعياله يتكرم
الوجه منه مخلق بقبيح ما
يأتيه فهو من اجله ملثم (18).

واورد بعض الكتاب روايات طريفة حول ارتباط الصنهاجيين في الصحراء باللثام منها مثلا تلك التي اوردها النويري نقلا عن ابن شداد، حيث ذكر ان رجلا من الملثمين، كان يغسل ثيابه علي ضفة نهر، فكان يغسل ثيابه بيده اليمنى ويستر وجهه بيده اليسري، فقال له شخص كان قريبا منه «استر عورتك بيدك، فقال انا ملثم بها...» (19).

وبعد قيام دولة المرابطين وسيطرتها علي مناطق شاسعة من المغرب الاسلامي، اصبح اللثام رمزا للابهة والترفع، ومما يدل علي ذلك ماذكره التادلي من ان ابا اسحاق يرى ان ابن يحي المسوفي، وكان من اكابر المرابطين في المغرب لما اراد ان يتخذ التصوف مسلكا له في حياته، اشترط عليه شيوخه نزع اللثام، وان يجعل بدلا منه طبقا علي رأسه ويدخل الي السوق حتى يراه الناس ليتخلى عن الرياء، ففعل ذلك واصبح من زمرة المتصوفين (20).

وخلال الفترة المرابطية لم تكن نوعية اللثام مجرد قطعة قماش تستخدم من اجل ستر بعض اجزاء الجسم عند بعض سكان صحراء الملثمين في العصر الوسيط، وتنتزع بعد زوال الغرض من استخدامها، بل كان اللثام جزء من الانسان الصحراوي في شتى العادات المادية

والروحية، وبالتالي كان أهم عنده من بقية ملابسة الاخرى.

الاحالات:

1 - ابن الشرقي حصري احمد / ارتسامات ومعطيات تاريخية حول مدينة مراكش - المطبعة والوراقة الوطنية / مراكش 1986 ص : 24.

2 - اليعقوبي: كتاب البلدان - المطبعة الحيدرية النجف 1957 ص : 111.

3 - ابن حوقل : صورة الارض -دار مكتبة الحياة بيروت 1979 ص : 99.

4 - ابو عبيد البكري/ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب - المطبعة الحكومية - الجزائر 1858 ص: 170.

5 - مجهول : الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية: تحقيق سهيل - وعبد القادر زمامه دارالرشادالحديثة - الدار البيضاء 1979 ص : 19.

6 - ابو الحسن علي بن ابي كرم المعروف بابن الاثير : الكامل في التاريخ9 ج ، دار الفكر ، بيروت 1978 ج 8 ص : 76.

7 - نفس المصد ونفس الصفحة.

8 - نفس المصدر ونفس الصفحة.

9 - ابو العباس احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان، وفيات الاعيان وانباء الزمان، 8 ج ، تحقيقات احسان عباس، دار الفكر، بيروت 1971، ج 2 ص: 120.

10 - نفس المصدر ونفس الصفحة

11 - ابن حوقل، مصدر سبق ذكره، ص : 99.

12 - البكري: مصدر سبق ذكره ص : 170.

13 - ابن الشرقي حصري مرجع سبق ذكره ص : 24.

14 - دلافوس

15 - علي ابن ابي زرع الفاسي. الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المقصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973 ص: 137..

16 - احمد بن عبد الوهاب المعروف بالنويري: نهاية الارب في فنون الادب ، تحقيق وتعليق: مصطفي ابو ضيف احمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985 ص : 385.

17 - احمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غض الاندلس الرطيب، 8 ج تحقيق د. احسان عباس ، دار صارد بتاريخ 1968، ج 4 ص : 133.

18 - نفس المصدر ج 3 ص : 205.

19 - النويري : مصدر سبق ذكره ص : 384.

20 - ابو يعقوب يوسف بن يحي التادلي عرف بابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق احمد توفيق: منشورات كلية الآداب الرباط ، 1984.

منوعات * منوعات * منوعات * منوعات * منوعات * منوعات م ت

جاء رجل من الأزد إلى المهلب أبي صفرة لمدحه فقال قد قلت فيك شعرا ثم انشده:

نعم أمير الرفقة المهلب

أبيض وضاح كتيس الحلب

فقال المهلب: حسبك.. حسبك رحمك الله!!!

الفرار السلمي مدافعا عن جبنه عند التحام الجيوش:

وكتيبة لبستها بكتيبة

حتى اذا التبست نفضت بها يدي

ماكان ينفعني مقال نسائهم

وقتلت دون رجالهم: لاتبعد

الوسيط في الأدب الموريتاني الحديث

(إنطباعات أولية)

محمد ولد محمد عالي

دكنوراه السلك الثالث ـ الأدب العربي

هاهي اللجنة الوطنية لجمع ونشر الثقافة، برئاسة الاستاذ موسي ولد ابنو، تقدم لنا انجازا علميا آخر باخراج الوسيط في الادب الموريتاني الحديث، وهو كتاب جمع مختارات من النصوص الشعرية والنثرية الحديثة في موريتانيا.

ولاعطاء هذا العمل مايستحق، سنحاول في هذه العجالة ابداء بعض الانطباعات الاولية حول بعض النصوص الواردة في الكتاب.

اولا : فيما يعني النصوص الشعرية،

سنكتفي فقط باثارة بعض الامور المتعلقة بالقصيدة النثرية. فمن المعروف ان لكل فن اعرافه وتقاليده التي تميزه عن غيره من الاجناس وتشكل ملامحه وسماته الاساية التي تحدد انتماءه لهذ الفن. فالدراما تستند الي اعراف فنية، منها قدرة الجمهور علي تخيل المكان والزمان والظروف المختلفة بانها واقعة أمامه علي الخشبة؛ ومناجاة البطل لنفسه علنا امام الجمهور وقراءته للرسائل الخاصة التي ترسل اليه بصوت يسمعه المتفرجون... الخ. ومن الاعراف المتداولة في الرواية التركيز علي الشخصيات ومرونة الحركة في كل الاتجاهات، لاستيعاب مختلف مظاهر الحياة، بخلاف القصة القصيرة التي تركز علي الحدث وشخصيات قليلة، غالبا ماتكون شخصا واحدا او اثنين؛ وبساطة البناء السردي؛ والتروي في الوصف، اي اختيار جميع العناصر والتقنيات الفنية التي تجعل القصة القصيرة قصيرة بالفعل، كما يدل علي ذلك اسمها.

اما الشعر فقد ظل الي هذا القرن محتفظا بالايقاع الموسيقي والعروضي، كاعراف مميزة له عن النثر، الا انه

اخذ يتحرر نسبيا من تلك الاعراف القديمة ويتخذ اعرافا جديدة ابتكرها شعراء جدد ساروا عليها حتي اكتسبت قوة الاعراف الفنية التي تميز هذا النوع، النوع الجديد من الشعر: شعر يتحرر من القافية ويحطم بنية البيت، بل يتخلص من جميع روابطه بالتفعيلة او الموسيقي الخارجية، كما هو حال القصيدة النثرية.

غير ان هؤلاء الشعراء الذين ابتكروا هذه الاعراف الجديدة لم يخلقوها من فراغ. والاهم انهم ليسوا وحدهم الذين ضمنوا لها الديمومة والبقاء، كشعر. فالجمهور بدوره نهض بعبء اساسي في هذا المجال، سواء بتلقيها وتذوقها من جانب القراء العاديين والنقاد او بالسير علي منوالها من طرف شعراء اخرين رسخوها كاعراف فنية مقبولة.

ذلك ان العرف الفني لايختلف عن العرف بالمفهوم القانوني، فله اركانه التي لايصح بغيرها، وهذه الاركان منها المادي ومنها المعنوي، فالركن المادي يتمثل في التكرار والاطراد والاستمرار، اي الحدوث غير مامرة. اما الركن المعنوي فيتأدي في تقبل العامة (القراء العاديين) والخاصة (النقاد) له وشعورهم بقوته كعرف واجب الاتباع علي من يلج باب هذا النوع من الفنون.

وفي هذا السياق فان القصيدة النثرية لن تكون كذلك (اي قصيدة) الا اذا تكررت محاولاتها وتجددت، ليس فقط من جانب الذين ابتدعوها، ولكن كذلك من جانب شعراء آخرين اتبعوها. ويبقي الحكم الاخير في ذلك – في اعتقادي – بيد الجمهور المتلقي، العام والناقد. اذ ترجع الي هذا الجمهور السلطة الاخيرة في تقرير مصير القصيدة النثرية. ولهذا اعتقد ان الحكم عليها الآن لايزال سابقا لأوانه. فالنصوص المقدمة لنا لاتتجاوز نصين لشاعر واحد معروف في الساحة الثقافية والادبية، هو ابراهيم ولد عبد الله. ولكن هل ستصبح القصيدة النثرية نوعا من الشعر له اعرافه وتقاليده الجديدة، ام نثرا جميلا خاليا من ثقل السرد والتعقيدات الفنية للعمل القصصي، ام ستصبح جنسا ادبيا قائما بذاته، له من الشعر لغته الجميلة واخيلته البديعة، وله من النثر الفني حرية الحركة وعدم التقيد بالجوانب الايقاعية والعروضية؟

ان من الصعب الاجابة بنعم أولا عن هذا السؤال، لأنه لايمكن لاحد ان يتنبأ بمسألة تتعلق بحكم الجمهور في المستقبل، ولكننا نشير فقط الي انه اذا تحققت الشروط السابقة، فان القصيدة النثرية يمكن ان تدخل الدواوين الشعرية الموريتانية. والتجارب في هذا المجال قائمة ففي الادب الاوروبي نجد ان الشاعر الفرنسي بودلير BoudLaire من اشهر رواد القصيدة النثرية، ومن بعده سار علي طريقه شعراء قلدوه ونقلوا تجربته. وفي ادبنا العربي دعا اودنيس الي ضرورة ان ينشئ المجتمع العربي جمالية خاصة به عن طريق الممارسة الابداعية الحرة، ومن قبله كان لأبي العتاهية رؤية مماثلة. ولئن كان انصار القصيدة النثرية في ادبنا العربي لايزالون قليلين، فيما اعلم، اذ لعلهم مازالوا يمرون بمرحلة تجريبية، قوامها التأرجح بين القبول والرفض، في «مختبر» الجمهور المتذوق والناقد. فلربما كان سبب ذلك عائدا الي ارتباط الشعر العربي وجدانيا ونفسيا بالايقاع الموسيقي الخارجي. وهو مايجعل انتشار القصيدة النثرية امرا بالغ الصعوبة، خاصة لدى

الموريتانيين.

وبالرغم من هذا كله، وبغير اصدارحكم سريع مستبق للجمهور، يمكن القول ان الشاعر ابراهيم ولد عبد الله استطاع ان يرتفع بهذه التجربة في بلادنا الي الواجهة او البؤرة.

فهو يكتب بلغة الشعر ورموز الشعر. وحينما نقول "لغة الشعر" فان المسألة تستدعي توقفا قصيرا. فالنقاد وكذلك الشعراء يعرفون ان اللغة اداة او وسيلة يستخدمها كتاب القصة والرواية والشعراء علي السواء. فاللغة بهذا المفهوم لاتعنينا هنا اطلاقا. فاللغة بالنسبة للشاعر، وهذا مايعرفه النقاد ايضا، وهو مانعني هنا، ليست مجرد اداة او وسيلة، انما هي جزء من شعره، مندمجة فيه. ولهذا فالشاعر يستخدم اللغة استخداما مزدوجا؛ يستخدمها كوسيلة ويستخدمها كهدف منشود لذاته، كجزء من "شاعريته" ومن تجربته. فهي بهذا المفهوم رموز وتجربة.

لنعد الي الشاعر ونقرأ له هذه الابيات النثرية التي يستعيد فيها احلامه الحزينة في قصيدته «انشودة المطر»

اتذكرين اخبارهم.. في الكتب
اتذكرين .. حين كانت
في اندلس .. جنة.. نهر.. وعيون
ولامركتموه.. وتعريفينه..
انحبس الفيء الظليل..
وظمئت شطآن المدينة..
الي آخر الابيات.

فاذا تأملنا هذه الكلمات، فانه يمكننا ان نتساءل عما اذا كانت مجرد وسائل للتعبير عن مأساة الشاعر ام انها جزء من المأساة ذاتها.

والي جانب اللغة الشعرية والايقاع الداخلي الخافت، نجد ان هناك نبضات ايقاعية موسيقية متوزعة في هذه القصيدة علي شكل بؤر تتجاذب القارئ او المتلقي هنا وهناك، وذلك باسلوب انسيابي رائع الجمال.

ومع هذا كله هل يمكن اعتبار هذا الكلام شعرا؟

مرة اخرى نقول ان السلطة المخولة للحكم في ذلك هم النقاد والجمهور المتذوق بعد ان تتكر التجربة من طرف الشاعر نفسه ومن طرف غيره، ليتشكل عرف فني جديد، علي نحو ماسبق تفصيله آنفا.

هذا مايتعلق بانطباعاتنا الأولية حول القصيدة النثرية، وسنواصل هذه الانطباعات حول النصوص النثرية.

ثانيا : في مجال النثر

سنتناول، في هذه العجالة، نصوصا لاربعة كتاب هم موسي ولد ابنو ومحمد ولد احظانا ومحمد فال ولد عبد الرحمن ومحمد ولد تتا، وذلك لضيق المكان والزمان عن تناول نصوص اخرى.

ولنبدأ بالكاتب موسي ولد ابنو، فهو يستهل قصته «المنفگعة» بمحاولة خلق جو مملوء بنزعة تشاؤمية شمولية، فالبدر الذي «طلع لتوه، مازال منعزلا في اقصي الافق.. كأنه تهديد غريب يتوعد الارض..».

فهو بهذا الاستهلال لايجعلنا فقط نخاف من المستقبل ولكنه كذلك يجعل سبيل النجاة امامنا يكاد يكون مستحيلا.

فالبدر لايتهدد «الحلة» فقط، ولكنه يتوعد «الارض»، جميع الارض. وهو لاينعزل في افقنا القريب، ولكن في

اقصى الافق. وهكذا تتضح ابعاد هذه النزعة التشاؤمية الشمولية. فالارض كلها معرضة للخسف والتهديد حيث لاسبيل يلوح في افقنا القريب لنجاتنا، ولامهرب حيث تكون المأساة حالة بجميع سكان الكوكب.

فالكاتب هنا يستخدم رموزا كونية. فهو يختار البدر حينما يلوح من اقصي الدنيا، لكي يجعل تهديده شاملا لجميع الارض.

وحينما نتقدم في قراءة القصة نجد تجسيدا لهذا التشاؤم من خلال تصوير الشخصيات. فمصير الابطال لدى الكاتب مقرر سلفا، بمايشبه الحتمية الطبيعية. ويبلغ هذا «التسيير» لحياة الابطال اوجه في شخصية «فالة» التي يتحتم عليها شرب اللبن وليس لها اي اختيار فهي خلقت لذلك. وهكذا فانها ليس امامها سوى انتظار الطبيعة (الرياح العاتية) لانقاذها من ورطتها (دورها) الماثل في الشرب القسري للحليب تحت ضغط الكماشة.، حتي انها جردت من ان تمنح دور "البطولة المعيشة" من خلال تقنية القص التي تستخدم فيها وجهة نظر الشخص الثالث (الغائب) لرواية الاحداث. ف"فالة" لاتفعل ولاتشرب ولاتقلق، بل تتلقي تجربتها من خلال شخص آخر يحدثها بذلك: ".. كنت في ذلك الوقت تغمسين شفتيك العسليتين في قدح مملوء بلبن الابل" ف "فالة لا تستحق ان تكون "بطلا" يقوم بادواره ويتحدث عنها علي لسانه، فبما ان ادوارها مفروضة عليها سلفا فحديثها عنها ممنوع كذلك، ولذلك يتولى شخص آخر، يحاورها مهمة سرد الاحداث. وحتي في اطار الحوار فاننا لانجد حوارا "حيا"، بل شخصا يتحدث وآخر يصغي بصمت مطبق.

ودور "ريحانة" لايختلف عن دور "فالة" فريحانة التي تبدوا وكأنها آمرة مطلقة وناهية لامعقب لامرها ونهيها،، انما تؤدي دورا مفروضا عليها، هي الاخرى ، سلفا حتى انها، في سياق هذه الحتمية الاجتماعية، ليست سوى اداة لا اكثر ولا اقل. وتنتهي القصة بعودة ابي "فالة" الذي فرض عليه دوره فرضا: «لقد اصبح لزاما علي كل واحد ان يقلد ابن عمه، حتي ولو كان وضعه لايسمح.» فدوره يتحدد في ضرورة البحث عن ترضية زوجته التي فرض عليها ان «تفعل مايفعل النساء جميعا.. لابد ان تغتاظ بين الحين والآخر، ليعرف ان كنت مازلت تحبها»

وهكذا يصور موسي ولد ابنو بتجرد نادر وواقعية فذة ممزوجة بمسحة رومنسية تشاؤمية واقع مجتمعه مستخدما رموزا محلية لاخفاء الواقعية علي احداث القصة وابطالها. ويمثل الفن الموسيقي الموريتاني اهم الرموز والعناصر المستخدمة. مثل «اسربات» الذي يرمز الي الاندفاع والحماس في الحرب و«الموسيقي البيضاء» التي «تلامس اللذة في النفوس الشابة»

ان توظيف الموسيقي علي هذا النحو، يجعل القصة اشبه برواية قصيرة منها بقصة قصيرة، فالفنان "مانو" يأتي كل صباح ليعزف على آلته "التيدينيت" في "مكة موسي" مدخل "كر" من "الطريق البيضاء"، لايقاظ سيده ابي فالة. وتظهر الفنانة "منين بنت مانو" وهي تعزف "آردينها" في "موسيقي بيضاء" نفاثة، لانعاش النفوس.

فالموسيقي هنا تتجاوز الرمز الي استخدامها كتوجيهات لعدسة الكمرا السنمائية. علي نحو مايفعله كتاب بارزون يتوخون الاقتصاد في اللغة والسرد الي

جانب التشويق.

ويتكامل دور الموسيقي مع دور الشعر الشعبي الذي يتستخدم، هو الآخر، في القصة، مما يدفعنا الي الاعتقاد بأن "المنفكعة" رواية قصيرة ناهيك عن اتساعها لاحداث كثيرة متشعبة وجوانب متعددة من الحياة والتركيز احيانا علي تفاصيل دقيقة متعلقة بالاحداث والشخصيات. ومهما يكن، وبغض الطرف عن كونها "قصة قصيرة" او "رواية قصيرة"، فان الكاتب برع في توظيف كثير من العناصر الفنية والتقنيات المختلفة، ليقدم لنا عملا رائعا يصور الحياة بواقعية مأساوية وتجرد قل مثله.

ولعل ذلك عائد الي معرفة الكاتب العميقة بالتراث المحلي والاسلامي والعالمي. حيث صهر هذه الثقافات والمعارف جميعا في بوتقته الفنية، فقدم لنا نتاجا فذا.

واذا انتقلنا الي كاتب آخر، هو محمد ولد احظانا، فإننا نجد عنده هذه النزعة التشاؤمية ايضا. وهي تتجلي في اول كلمة يكتبها، اي العنوان، فمجرد النظر الي عناوين قصتيه وروايته، وهي «الخراب» و«السجين» (و«رحم الارض» = القبر)، من شأنه ان يدفعنا الي ادراك هذه النزعة التشاؤمية.

وتمثل «الموت» و«القبر» اهم موضوعات محمد ولد احظانا، فكأنه لايرى سوى الجانب المظلم من الحياة. فهو يغوص في اعماق النفس البشرية، فيخرج لنا منها هذه الجوانب القاتمة: «الموت» «الدم» «القبر» وحتى ايام الحب «ترابية» مقنعة. فالحبيبة سراب ولقاؤها «باهت». فهي «تملأ اعطافي حطاما، وتترع نفسي فراغا»، فهي «تحدثني اليوم عن خنجر مزدوج النصل»(1)، ويظهر آدب الموت جليا في روايته «رحم الارض» التي كرسها لوصف الموت وطقوس الغسل والدفن.

وكما يستخدم موسي ولد ابنو فن الموسيقي الموريتانية كرمز لتسليط الضوء علي احداث القصة، يوظف ولد احظانا الاسطورة الشعبية والجان والسحرة لانجاز هذا الدور. فالاثنان رغم الاختلافات الفنية القائمة بينهما تجمع بينهما خيوط شبه، هي الرومنسية الممزوجة بالواقعية والنزعة التشاؤمية وتوظيف الرموز المحلية لاضفاء الواقعية علي الاحداث. علي أن اختلافهما يظهر جليا في رسم الشخصيات. فالبطل عند موسي ولد ابنو يتحدد دوره سلفا، اما عند احظانا فهو مسؤول عن دوره واعماله، ولكنه يختار لنفسه مصيرا مأساويا. فهو يحفر قبره بنفسه فيحب حين لايكون الطرف الثاني يشاطره ذلك: «فاللقاء مع الحبيبة باهت.. وحبيبتي تملأ اعطافي حطاما وتترع نفسي فراغا...»

ويظهر الفرق بينهما في استخدام تقنيات القص. فموسي ولد ابنو يستخدم تقنية شبيهة بالمتحدث الذي يراقب الاحداث ويقصها دون ان يكون له فيها دخل. في حين يستخدم احظانا ضمير المتكلم لسرد الاحداث. ويوظف الحوار والمونولوج. فالبطل عنده يعيش دوره ويوجهه، اما موسي ولد ابنو فيفرض علي البطل دوره. ويستخدم موسي لهذا الغرض «تقنية الراوي المراقب للاحداث». فاحظانا بطل ادواره، اما موسي فمراقب، يتفرج علي ادوار مرسومة سلفا. ولكنه ينقلها الينا بامانة لانظيرلها.

وموسي واحظانا يجردان الاحداث، فهدفهما هو رسم لوحة تجريدية لحياة مأساوية. «فالبلوح» عند موسي

يظهر من خلال تقنيات السرد كموضوع مجرد، فالمهم ليس ظاهرة «البلوح»، التسمين القسري، بل «حتمية البلوح» علي ان هناك كاتبين، يجسمان الاحداث ويشرحانها. وهما محمد فال ولد عبد الرحمن ومحمد ولد تتا. فهذان الكاتبان يستخدمان السخرية والنكتة لتشخيص الواقع الاجتماعي ونقده.

وعلي العكس من موسي واحظانا، يتوخى محمد فال ولد عبد الرحمن ومحمد ولد تتا خلق مزاج مرح لدى القارئ، رغم اختلافهما في درجة هذا الجو المرح الذي يخلقان.

فمحمد ولد تتا يجعل القارئ يعيش هذا الجو المرح الساخر من اول حرف حتى آخره. وذلك باسلوب متمتع جذاب، يفرض علي القارئ ان يستمر في قراءة العمل حتى ينتهي منه، بغير انقطاع وهو يستخدم اطارا قصصيا مركبا، يوظف فيه الحوار بين شخصين كتقنية لسرد الاحداث، علي نحو مايجري في بعض القصص الشعبي، مثل «الف ليلة وليلة» مع بروز الاسلوب التراثي : «قلت للبكاي : هذا يوم الجمعة فحدثنا ببعض كرامات الشيخ، فعند ذكر الصالحين تنز البركة. قال البكاي: «- كرامات الشيخ في حياته مشهورة كثيرة وليست بعد وفاته اقل فمن كراماته...»

ويساعد هذا الاسلوب التراثي الي جانب التقنيات الفنية الاخرى في خلق جو مرح لدي القارئ.

أما محمد فال ولد عبد الرحمن فانه يكتفي بخلق جو مرح عام، لكنه بين الحين والآخر يجعلنا نحزن، واذا كان ذلك بطريقة هادئة لاتصل بأي حال الي درجة المأساة. فهو عندما يكون الحدث داعيا الي الحزن، يقدمه باسلوب يجعله غير ذلك. وفضلا عن ذلك، فهو يقدم للقارئ من حين لآخر جرعات تهدئة وتسكين حتى ينتهي من قراءة القصص بغير كدر.

فسيدي، بطل «الهوية»، عندما وصل الي المكان الذي يبحث فيه عن عمل، في الصباح الباكر، لم يجد احدا. فكان ذلك باعثا علي حزنه.

– وحزننا ايضا لما يعلقه سيدي من امل علي وجود الموظف – لكنه سرعانما وجد عزاءه في طول الطابور الذي كان هو علي رأسه. اذ لو لم يجئ في ذلك الوقت الباكر جدا لوجد نفسه في مؤخرة الطابور. كان سيدي يتفرج علي الشاحنات. وهي تنقل العمال الي اماكن عملهم فيسعد بذلك، لانه يذكر بقرب حصوله علي العمل او علي الاقل احتمال حدوث ذلك. وعندما ارجعه الموظف خائبا، بغير حصوله علي بطاقة الشغل، وجدَ صديقا له يعرف الموظف. والاهم من هذا كله انه في نهاية القصة عندما خابت آماله وتحطمت امانيه لعدم حصوله علي عمل، نجد انه «بعد ايام خفت حدة الآثار التي خلفتها خيبة الامل. فعاد الي حلقات لعب الورق من جديد... يجلس مبكرا في احدى تلك الحلقات حتى ينتصف النهار ثم يعود في المساء حتى يقبل الليل، فيذهب الي منزله... انها الحلقة المفرغة التي يدور فيها».

فهذه النهاية كان يمكن ان تدعو الي الحزن وتخلف شعورا مأساويا عندنا، لكن الاسلوب الذي قدمت به ربما يجعلنا نحافظ علي روح المرح الذي بدأنابه. فآثار الاحباط خفت عند سيدي نفسه وهو الآن يلعب ويلهو مع جماعة العاطلين.

1– قصة "الخراب" * الوسيط في الأدب الموريتاني الخديث

الصفوة في المجتمع الموريتاني ونمط الانتاج الكولونيالي

عمر ولد بابو

باحث موريتاني

تمثل العملية الاستعمارية – من الناحية المجتمعية – بكل اهدافها نوعا من التفكيك واعادة الصياغة والقولبة، وفق اسس وقواعد جديدة للمجتمعات التي خضعت للعملية الاستعمارية او الامبريالية اينما وجدا فان الاستعمار حركة للتفكيك، وهو في نفس الوقت عملية صياغة تشكيل جديدة هي وليدة حالة التفكيك تلك وهكذا وبشكل ديالكتيكي يصبح الاستعمار علي الرغم منه حركة بناء.

وعلي اساس آليات التفكيك واستيراتيجياته تظهر حالة جنينية للبناء الجديد علي انقاض البناء التقليدي للمجتمعات المستعمرة الغرض منها اصلا خدمة المصالح الاستعمارية ولاينفي ذلك ان تحمل مثل هذه العملية في طياتها جدليات قد تعود الي التخلص من الاستعمار وتنقلب عليه.

وسنحاول في هذا البحث ان نقف علي آليات التفكيك واستيراتيجياته، والتشكيلات الجديدة التي احدثتها العملية الاستعمارية علي البناء التقليدي للمجتمع الموريتاني، مركزين علي المحددات الجديدة لقمة الهرم الاجتماعي "الصفوة: في فترة الاحتلال الفرنسي الذي امتد من 1900 - 1960 فمثلا الاختراق الهيكلي الاكثر عنفا علي البناء الاجتماعي التقليدي وآليات انتاج القوة والنفوذ في ظل الإدارة الكولونيالية من خلال المحاور التالية:

اولا : الكيان الموريتاني

ثانيا : استيراتيجيات التفكيك والسيطرة انتاج الصفوة.

اولا : الكيان الموريتاني

رغم الاختلاف الاثني بين العرب والأفارقة واختلاف الانظمة الاقتصادية الاساسية بينهما. الا ان هذا الاختلاف لم يكن في اي مرحلة تاريخية عامل تناقض. فقد نسجت العلاقات التجارية التاريخية والدينية لحمة قوية بين مناطق الزنوجالأفارقة والعرب "البيضان". كما مثل البيضان حلقة الوصل بين بلاد السودان جنوبا والمغرب العربي في الشمال، فكانت معظم طرق التجارة القارية في غرب افريقيا تمر بمناطق نفوذهم وتمركزهم.

وقد مثل الاسلام الذي حملته القبائل الصنهاجية مع طرق التجارة الصحراوية الي مجتمعات السودان اهم عامل طبع المنطقة. وتعود علاقة السود بالاسلام الي القرن الحادي عشر الميلادي فقد كان "وارادیابي ابن رابي اول ملك اسود يعتنق الديانة الاسلامية. كان ذلك سنة 1040 م ومنذ ذلك التاريخ اصبح الاسلام يعرف تقبلا في بلاد السودان عامة وفي حوض نهر السينغال علي الاخص، وقد وجد الدعم مع فتوحات المرابطين.. وحركة ناصرالدين الذي سير الجيوش الي ضفة النهر، وكانت له ايام كثيرة. ففي عهده فتحت فوته علي يد النحوي الايدبيجي... وفتحت "جلوف" علي يد الفاضل بن ابي يعدل... وفتحت "شمامه" علي يد الفاضل بن محمد الكوري(3). وقد خلق مشروع الكيان السياسي المجهض في "بلاد السيبه" تحت زعامة ناصر الدين اثرا قويا في متجتمع "التكرور"، ولم تكن حركة "المامیات" الا استمرارا له ومحاولة الاستعادة الاسلام في صفائه.

هكذا صهرت المجتمعين عوامل ربط اقتصادية ودينية قوية فكان غير غريب ان تؤسس علي هذين العاملين مشروعية كيان سياسي.

هذا اذا لم نذهب مع ابن خلدون في تصنيفه للبدو عندما اعتبر المجتمعات الزراعية الصغيرة نمطا من انماط البداوة. يقول بن خلدون في نصنيفه لدرجات البداوة " فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به اولي من الظعن وهؤلاء سكان المدن والقرى... ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الاغلب لارتباد المسارح والمياه (4) وعلي هذا الاساس تكون الزراعة عند المجتمعات الزراعية المستقرة في الجنوب تنويعا لنمط واحد سائد في المجتمع هو الانتاج الرعوي، كما كان للطرق الصوفية القادرية والتجانية دور كبير في تقوية اللحمة بين العرب والسود.

ولقد ظل بناء القمة في المجتمع التقليدي يتجمد في اطار العلاقات القرابية التي يجد الانسان نفسه فيها منذ ميلاده او حيث تحتكر الفئات العليا في هرم التراتبية الاجتماعية السلطة والنفوذ من خلال التوظيف الايديولوجي للمعرفة بالنسبة للزوايا او من خلال قوة السلاح الذي هو امتياز الفئات المحاربة. الي ان بدأ الفرنسيون في توطين ميكانيزمات جديدة لانتاج القوة قادت بشكل سريع الي حراك اجتماعي تمظهر في ميلاد صفوة جديدة.

ثانيا : استيراتيجيات التفكيك والسيطرة وانتاج الصفوة

بدأت اول عمليات التفكيك والسيطرة في الحقل الاقتصادي وحيث كان النشاط الاقتصادي للمجتمع

الموريتاني التقليدي محكوما بنمط معاشي رعوي قائم علي المقايضة، فان ادخال العملة التي جاءت مع الاستعمار مثل اول تصادم بين نمطين انتاجيين مختلفين: نمط انتاج رأسمالي حديث، ونمط انتاج تقليدي معاشي، وشكل بداية شهور اقتصادي السوق في المجتمع الموريتاني وكان من نتائج ذلك السريعة ظهور تفاوت يزداد بوتيرة سريعة بين الجماهير واقلبية محظوظة مثلها شريحة تجارية بدأت تتعامل في التجارة وشكلت نواة الصفوة الكمبرادورية التي سيكون لها دورها المستقبلي. وكنتيجة للسياسة الغربية الاستعمارية اخذت المعاملات التقدية في الانتشار لاجبارية دفع الضريبة نقدا.

– وكان نشر الثقافة الفرنسية احدى الدعائم الاساسية لعملية تفكيك البناء التقليدي واعادة انتاج العملية الاستعمارية. ورغم المقاومة الثقافية والمسلحة تمكن الفرنسيون من افتتاح بعض المدارس في اطار القانون المنظم للتعليم في مستعمرات واراضي افريقيا الغربية الصادر بتاريخ 1903/12/24 (5)، ومنذ ذلك التاريخ بدأت عملية التمدرس تنتشر ببطء الي أن اصبح التعليم الحديث قيمة معنوية ومادية وطريقا للنفوذ والسلطة. يتضح ذلك جليا في المكانة الاجتماعية للمترجم.

ولم تمنح الادارة الكولونيالية فرصا متساوية في العملية التعليمية فقد كانت المدارس الاولي تصنف الي مدارس مخصصة لابناء الوجهاء ومدارس القرى للعامة (6) الا ان عملية الاكتتاب في المدارس الفرنسية التي دخلت في صراع قوي مع المحاضر اقتصرت في البداية علي ابناء معاوني الادارة الفرنسية وابناء بعض الوجهاء الذين وقعوا تحت ضغط مباشر من الفرنسيين.

– من بين آليات التفكيك والسيطرة الكولونيالية كانت عمليات التنظيم الاداري اقوى واسرع من غيرها في احداث تأزمات علي مستوى البناء الاجتماعي التقليدي او عملية انتاج الصفوة تبعا لسياسات ادارية متعددة، سعت الادارة الكولونيالية الي تفكيك البناء التقليدي للمجتمع الموريتاني بالشكل الذي يضمن تحقيق مصالحها التي كانت استيراتيجية سياسية في البداية ولم تتحول الي مصالح اقتصادية الا بعد الحرب العالمية الثانية. وبشكل اشد وضوحا بعد الاستقلال الوطني سنة 1960 ، كذلك فان من بين اليات التفكيك والسيطرة عملية اكتتاب المعاونين والمخبرين.. التي قامت بها الادارة الإستعمارية، وخلفت لاول مرة في المجتمع الموريتاني شريحة تتقاضي اجورا نقدية نظير خدمتها وقد مثلت هذه الشريحة نواة لمجتمع "نيوكولونيالي".

وهكذا قمع دخول الاستعمار الفرنسي بقيادة الاداري كبولاني بدأت الاطر التقليدية للمجتمع تعرف حراكا مخططا ومدروسا بعناية، مثله في البداية سعي المفوض الفرنسي مدفوعا بمباركة من (شيخين متمكنين) الي تجريد فئة المحاربين من شرعية احتكار العنف، وان كانوا سبب الفوضي وأعمال النهب التي لم تقتصر علي بلاد السيبه بل تعدتها الي الضفة اليسري للنهر فطالت المصالح الإستعمارية.

اما التنظيم الأميري –الذي شكل اطارا للسلطة – يحتكر فيه المحاربون النفوذ علي فضاء ترابي تقع فيه

مجموعات مختلفة من القبائل، فقد جرد من ميزاته مع استيلاء فرنسا علي موريتانيا. واتفقت مصالحها مع مصالح الزوايا في انتزاع سلطة المحاربين. واستتباب الامن في ظل احترام فرنسا للتقاليد الاسلامية. من هنا بدأت آليات انتاج الصفوة تختلف عنها فترة ماقبل الاستعمار. وقد تدعم ذلك السير بالتنظيم الاداري.

ان مسيرة تدمير البناء الاجتماعي في هياكله المختلفة لم تقف عند حد احتكار الفرنسيين للعنف بل تعدتها الي تفكيك علاقات التبعية والنفوذ بين القبائل بعضها مع بعض وداخل القبيلة الواحدة، ففي تقرير للحاكم الفرنسي 1910 يؤكد في رسم صريح للسياسة الفرنسية علي ان "علي الفرنسيين ان يهدموا كل سيطرة لعرق علي آخر، لمجموعة اثنية علي مجموعة اخرى ومقاومة نفوذ الاستقراطيين المحليين بطريقة تضمن لنا تعاطف الجماعات والقضاء علي القيادات الاهلية الكبرى"(7) وقد لعبت بعض شخصيات الزوايا دورا مركزيا ومؤثرا في هذه السياسة التفكيكية للهياكل الاجتماعية التقليدية وبالعنف اذا اقتضى الامر، وبذا حسمت الادارة الكولونيالية الصراع علي النفوذ السياسي والاقتصادي لصالح الزوايا، وقد مرت سيايات التفكيك الاجتماعي بالمراحل التالية:

1 - المرحلة الاولي:

وتمتد من 1900 - 1907 وقد تميزت بتجريد المحاربين من السلاح وتفكيك الاطر الاميرية في المناطق التي خضعت للنفوذ الفرنسي، واعلاء شأن الزوايا الذين قويت شوكتهم وازداد نفوذهم لتأييد بعضهم للتدخل الفرنسي في موريتانيا. وانتهت هذه المرحلة باغتيال كبلاني.

2 - المرحلة الثانية :

مرحلة الاحتواء 1907 - 1946 كان هدف هذه المرحلة تدمير علاقات التبعية والسلطة في المجتمع التقليدي وتفكيك آليات انتاج الصفوة التقليدية، وكانت نتيجتها علي المستوى الاجتماعي ضعف سيطرة الصفوات التقليدية وتفكيك هرم القوة التقلدي من جهة، ومن جهة اخرى ظهور آليات جديدة لانتاج القوة المدرسية، خدمة الادارة الاستعمارية. وبداية تشكيل صفوة جديدة تدعم مركزها مع اعادة تنظيم الادارة الاهلية والقضاءعلي الكفاح المسلح.

خلال هذه المرحلة كان هدف الادارة الاستعمارية محصورا في تمكين القبضة علي الاهالي وتفكيك هرم القوة عبر جملة من القوانين المتعاقبة اشهرها عملية تنظيم الادارة الاهلية لموريتانيا(8).

تتشكل الادارة الاهلية من شبوخ قبائل وفخذيات وامراء. وعلي كل مستوى من هذه المستويات تساند الرئيس جماعات من الوجهاء يتكونون من رؤساء الفخذيات علي مستوى القبيلة او من رؤساء الاسر علي مستوى الفخذيات، يحتل رؤساء القبائل اهلية خاصة في ادارة الاهلية في حين ان الامراء والشيوخ العامين يملكون سلطة اقل تحديدا - بخلاف مركزهم قبل دخول الاستعمار - منذ اتجهت الادارة الاستعمارية الي الاعتماد مباشرة علي البنيات الاساسية للمجتمع التقليدي: الفخذيات الاسر الكبيرة، كنوع من تفكيك بناء القوة.

في درجة اعلي من هرم القوة يقف معاونو الادارة

الاستعمارية من الاهالي والاجانب من المترجمين ومن فرق الهجانة.

وعلي قمة هرم القوة يوجد المواطنون الفرنسيون من رؤساء الدوائر الادارية والعسكرية. وتعمل الادارة الاهلية بمختلف مستوياتها تحت سلطة الحاكم العام للمستعمرة الذي يتولي معاونوه متابعة تنفيذ اوامر السياسات التي يعهد الي الادارة الاهلية بتنفيذها، وعلي رأسها جمع الضرائب التي يحددها الحاكم العام لموريتانيا. ويتولي رؤساء الفخذيات جمعها وتقديمها للشيوخ الذين يتولون بدورهم دفعها للادارة الفرنسية.

المرحلة الثالثة 1946 - 1960

مثل ظهور الجمهورية الرابعة في فرنسا قطيعة مع الإرث الاستعماري الفرنسي في شكله السافر، تجسد ذلك في ادخال الطريقة الديمقراطية في ادارة الحياة العامة للمستعمرات. واعطيت حرية تشكيل هيئات اقليمية عن طريق الانتخابات تقوم بادارة الامور المحلية للمستعمرة، وتمتلك كل جمعية الحق في انتخاب مندوبين عنها لدى المجلس الاعلي لغرب افريقيا الفرنسية A O F. من ناحية اخرى ضمن دستور 1946 للمستعمرات الحق في انتخاب ممثلين عنها لدى البرلمان الفرنسي.

ادت تلك الاصلاحات السريعة الي تغيير في هرم القوة وتبادل في مواقع النفوذ وبدأت في الشهور وبشكل قوي بوادر تشكل الصفوة الجديدة التي كانت صنيعة المدرسة الكولونيالية ونتيجة لسياسات التفكيك واعادة البناء التي سعت اليها.

اخذ مترجمو ومعاونو الادارة الاستعمارية في لعب دور الصفوة السياسية، محتكرين القضاآت العليا للمجال السياسي عبر جملة من التحالفات مع الادارة الفرنسية ومع الوجهاء التقليديين، ولقد كان الاتجاه الذي مثله حرمه ولد بابانه – الذي دعى الي المساواة بين مختلف الفئات الاجتماعية وانضم الي الحزب الاشتراكي في السينغال – يمثل نشازا عن الخط الذي تحتذبه الادارة الفرنسية والوجهاء التقليديون. والذي كانت له الغلبة في النهاية، وقد جسده تحالف الوجهاء والادارة الاستعمارية مع مجموعة من الشباب المثقف ثقافة غربية اقل تطرفا واكثر استعدادا للتعامل بواقعية مع الادارة الاستعمارية.

الهوامش:

1-Hamid El mauritanie l'indépendance neo-coloiniale édition six continents Paris 1924 P.12.

2- A traoré l'islame en Mauritanie un introduction a la Mauritanie cit. P. 156

3-الشيخ محمد اليدالي. نصوص من التاريخ الموريتاني. تحقيق محمدن ولد باباه، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ،بيت الحكمة المغرب ص(١٣٠-١٣١).

4- عبد الرحمن بن خلدون. المقدمة ص (١٣٤)

5-Voir déchossey la Mauritanie 1900 - 1975 P. 114

6-Hamid el Mauritanie d'indépendance neo-coloniale op ci. P. 43

7-Francis de Chassy la mauritanie Cit. P.50

8-Voir mohamed Yahya Ould sidalla : la mise en place de l'évolution des sur conceptions administratives en pays maure 1905 - 1940. U de Nouakchott 1991 P.2

"رحلة الي افريقيا" لمونكو بارك

انجليزي يزور إمارة اولاد امبارك في نهاية القرن الثامن عشر (1795)

سيد أحمد ولد أحمد سالم

باحث / المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين

بلغت التجارة المركانتيلية(1) أوجها في القرن الثامن عشر، وفي خضم البحث عن الأسواق ومناجم المعادن قامت بريطانيا سنة 1795 م ببعث شاب اسكتلندي ذي اربع وعشرين سنة يسمى مونكو بارك الي افريقيا.

لقد كان هذا الشاب المغامر ذا تكوين طبي وقد طلبت منه جمعية لندن الافريقية، ومن مركز لها في غامبيا، أن يقوم بتتبع النهر الغامبي حتى يصل الي منبعه، ولقد كان الظن السائد حينها أن النهر الغامبي رافد من روافد نهر النيجر وان النهر السينغالي رافد آخر له، وبالتالي فأن السفر عبر الأنهار سيقود الي كل البلدان التي تجتازها هذه الأنهار.

وفي يوم 22 مايو 1795 بدأ الرحالة مونكو بارك رحلته التي ستقوده إلى بعض الأراضي السنغالية وبعض الاراضي المالية التي تضم حينها الامتدادات الشرقية لامارة اولاد امبارك.

وقد كتب مونكو بارك رحلته في كتاب بعنوان (رحلة داخل افريقيا)، ومن فصول الكتاب الستة والعشرين خصص الرحالة أربعة فصول وجزءا من فصل للحديث عن اولاد امبارك.

وقبل الدخول في صميم ماكتبه مونكو بارك عن امارة اولاد امبارك نود ان نعرف قليلا بهذه الامارة الموريتانية.

يرجع نسب أولاد امبارك الي جدهم امبارك بن امحمد بن عثمان بن مغفر، فهم إحدى المجموعات المغفرية التي يرجع نسبها الي حسان.

وقد كان دخول القبائل الحسانية البلاد الموريتانية حدثا تاريخيا حاسما بالإضافة الي كون القبائل

الحسانية تواردت بتفاوت زمني ملحوظ. وكان مجيئ أولاد امبارك واخوتهم المغافرة متوجا للهجرة الحسانية بهذه البلاد.

وقد استقر أولاد امبارك بعد معارك عديدة في الكبلة وآدرار وتكانت، في الحوض، وكانت معركة «كساري» قرب مدينة النعمة الحالية الواقعة بشوال سنة 1124 هـ وانتصار جيش اولاد امبارك فيها علي بني عمومتهم اولاد بوفايده تكريسا لسيطرة اولاد امبارك علي منطقة الحوض وما والاها من المناطق وخاصة منطقة باغنة بالجمهورية المالية حاليا.

وقد توزعت بطون اولاد امبارك إلى مشيخات وسلطنة: فقد كانت مشيخة اولاد لغويزي بمنطقة لعصابة وكانت رئاستهم عند اهل اللب بن بوسيف ابن سيدي احمد بن اوديكه (2).

وكانت بالحوض الغربي مشيخة فاته انغلي والرئاسة عند اهل بوسيف بن محمد الزناكي. وبالحوض الشرقي مشيخة اهل هنون لعبيدي اصحاب رئاسة اولاد امبارك العامة ورئاسة هذه المشيخة عند اهل احمد بن هنون لعبيدي (3).

واخيرا كانت السلطنة أو المشيخة الأم بمنطقة باغنة (جمهورية مالي) وسلاطينها أهل هنون بن بهدل (هنون انبهدل) (4).

وقد زار مونكو بارت هذا الجزء من امارة اولاد امبارك؛ أي الطرف الشرقي الذي يشكل أقوى عناصر الامارة، واكثرها تنظيما وفي فترة الامير اعلي بن اعمر بن هنون بن بهدل.

ويعتبر اعلي هذا حسب الحوليات الموريتانية، ثالث أمراء اهل هنون بن بهدل وقد تولي السلطنة من سنة 1171هـ - 1757م حتى سنة 1213هـ 1798م، وقد خلف أباه أعمر وكان من ارفع السلاطين ذكراواعمهم نفعا واكثرهم عدة وعددا، وقد نازعه عمه اعلي الشيخ بداية أمره علي السلطة فغلبه اعلي ولد اعمر ونفاه الي بلاد ماصه (بلاد السودان).

وكان اعلي يلقب ببوسروال" ويلقب ايضا باعلي العافيه، وقد امتدت سلطنة اولاد امبارك في زمنه فشملت مجالا جغرافيا متسعا، وقد سجل بعض الشعراء الشعبيين ذلك قائلا:

ول اعمر ما امعاهْ الواصَه
معطَ ملان عارفْ اطريگْ
مالكْ البظانْ واهل ماصَه
أمالكْ إفلانْ واهل سيْگ
وامخوفْ إفلانْ باهلْ ماصه
وامخوفْ اهل ماصهَ بَمغيرةْ اهل سيْگ (3)

مونكو بارك في محلة اعلي بن اعمر

بعد سفر طويل وشاق، وبعد المرور بعدة ممالك زنجية (5) كان الرحالة الاسكتلندي يواصل سفره نحو مدينة تمبكتو وقد قادته خطاه إلى أن يضع عصا ترحاله يوم 12 مارس 1796 بمحلة أولاد امبارك عند بئر بالنعوم (بالنعوم: اليوم بئران إحداهما بموريتانيا والأخرى قريبة منها وتقع في الأراضي المالية، ومن المحتمل عندي أن يكون حل بتلك الواقعة بمالي).

ويطلق منگو بارك علي هذه المنطقة مملكة ولد أعمر (Royaume de Ludamar) ويعني بطبيعة

الحال أعلي بن أعمر السلطان يومها.

لقد قضى هذا الرحالة أربعة أشهر أو قريبا منها مع أولاد امبارك، إذ استطاع أن يفر في نهاية يونيو منهم، مشرقا نحو مملكة بامبارا وقاعدتها مدينة سيگو.

الضيف العجيب:

لم يكد مونگو بارك يصل إلى بالنعوم حتى استقبله السكان بعيون مندهشة ونظرات شزراء وكأنه مخلوق من سكان كوكب آخر.

فكان أول مشهد رآه هو إحاطة الملأ به؛ فهذا يجذب قميصه وذلك ينزع قبعته وآخر يتفرس في أزرار قمصانه ورابع يصرخ متعجبا وقائلا: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أحاط الناس بهذا الضيف العجيب شكلا وهنداما ولغة واقتادوه إلى خيمة الأمير أعلي.

وصف أمير أولاد امبارك وحاشيته:

كان الأمير أعلي بن أعمر -حسب الرحالة مونگو بارك- شيخا أبيض عليه سيمى العربي الأصيل، وكان كث اللحية يملأ شعرها الأبيض وجهه، كما كان يمتطي دائما جواده الأبيض، حتى داخل المحلة ولا يرى سائرا على قدميه إلا نحو المسجد. ولم يكن يقضي الليل في خيمته كاحتياط أمني.

ومع هذه الأوصاف الإيجابية نجد أوصافا سلبية، بل ومقذعة أحيانا يصف بها الرحالة الأمير أعلي وحاشيته فهو ومتغطرس ويشك في كل شيء من منظور الرحالة.

وهذه الأوصاف وغيرها مما سنرى تفهم وبصورة واضحة، إذا ما علمنا أن مونگو بارك قضى شهوره الأربعة مع أولاد امبارك في غاية الضيق والتأزم. وكثيرا ما وصف الرحالة حاشية الأمير بالقساوة والتطاول وحب إيذاء الآخرين.

أمير أولاد امبارك يعقد جلسة خاصة لمجلس الإمارة حول الرحالة:

يتحدث مونگو بارك عن وجود تنظيم أميري يستدعيه أمير أولاد امبارك لتدارس الطوارئ. وقد خصص جلسة من جلساته لحالة الرحالة الانگليزي الطارئ. وقد تابع مونگو بارك وقائع هذه الجلسة عن طريق مرافقة الزنجي الذي كان مترجمه.

وقد كان هنالك رأي يميل إلى قتله للتخلص من هذا الكافر. وهنالك رأى من أحد الشيوخ بضرورة نزع عينيه لشبههما بعيون القطط حتى لا يولد للحوامل أبناء تشبه أعينهم عيون القطط!.

إلا أن الأمير زعلي آثر الإبقاء اعلى حياته، ويذكر الرحالة أن أعلي إنما فعل ذلك حتى تتمكن زوجه فاطمة من رؤية هذا الضيف العجيب، وقد كانت فاطمة يومها في رحلة نحو ظهر ولاتة في شمالي الإمارة.

بعض أوصاف المجتمع الموريتاني من خلال رحلة مونكو بارك:

يلاحظ الرحالة أن مجتمع أولاد امبارك والبظان عموما مجتمع رعوي، وتشكل قطعان الإبل والبقر والغنم ورعايتها نشاطه الأساسي.

ويتصف البيظاني الذي صلبته الصحراء والتحرك الكثير، بقوة التحمل: تحمل التعب والجوع والعطش... كما يتصف بالشجاعة الفائقة.

ويعد الاهتمام بالزراعة -حسب الرحالة- أمرا ثانويا بالنسبة لمجتمع البيظان هذا إن لم يكن عيبا.

وأغلب أسلحة البيظان وخاصة الأسلحة النارية مستوردة من الفرنسيين الموجودين بالسينغال.

ويلاحظ الرحالة مدى تدين مجتمع البيظان الذي زاره وكيف يصل بهم التدين أحيانا حد رفض الغير.

ويسخر الرحالة من معلم قرءان الحي الأميري، فقد كان حسبه ذا ادعاء، فلم تكن مكتبته تتجاوز تسعة مخطوطات في حين ذكر هذا المعلم للرحالة أنه يعرف اللغة الهندية واللغة الرومانية.

أما المرأة، حسب الرحالة، فالاعتناء بتعليمها محدود، والنظرة الجمالية هي أن تكون ضخمة، وقد شاهد الرحالة جانبا من (تبلاح) الفتيات أي تسمينهن.

ويصف الرحالة نشاط النساء في حي الأمير كما يصف اللباس وطريقة الحلاقة وأنواع الأمراض المنتشرة وطريقة القضاء...

ويخصص حديثا شيقا لخيل أولاد امبارك ونظامهم العسكري وتقاليدهم الحربية.

ويتحدث بتفصيل عن النظام الضريبي وطريقة جباية الأتاوات وخاصة من الممالك الزنجية المجاورة التي كان أعلي يسيطر على أغلبها.

ويخصص الرحالة جزءا طويلا من حديثه للأوصاف السلبية للمجتمع البيظاني، فلا يترك وصفا سيئا ولا مذمة ولا لعنا ولا شتيمة إلا وألحقها بهم كالخداع والتسلط والسرقة... الخ.

إن رحلة مونگو بارك وخاصة منها ما يتعلق بإمارة أولا دامبارك يعتبر نصا هاما لعدة أسباب:

– منها أنه أقدم نص أوربي يتحدث عن هذه الإمارة التي ضاعت أخبارها.

– ومنها كذلك أنه ليس سردا قصصيا لرحلة، بل يتجاوز ذلك إلى تقديم كثير من العناصر التي تتعلق بالحياة العامة والتقاليد والتنظيم السياسي للإمارة والحديث عن مواردها الاقتصادية...

ومهما كان تحفظنا على بعض الإشارات الواردة في نص رحلة مونگو بارك، فإنه يبقى نصا ذا قيمة جليلة.

ولاشك أن أربعة أشهر في السجن والمراقبة الدائمة والمضايقات النفسية والبدنية قد لا تسمح لهذا الرحالة بمعرفة هذا المجتمع، بل قد تدفعه –وهو ما وقع بالفعل– إلى كثير من التحامل والشتم لهذا المجتمع.

ولكن مع ذلك فإن على الباحثين أن يترجموا هذا النص ليراه القارئ الموريتاني ويتطلع من خلاله على جانب مما كتبه الآخرون عن هذه البلاد.

ملحق:

ترجمة لبعض المقاطع المتعلقة بفروسية أولاد امبارك وحياتهم العسكرية (من رحلة مونگو بارك):

« ... صحيح أن البيظان فرسان مهرة، إذ قد ألفوا صهوات الخيل.

وبفضل سروجهم المتقنة والمرتفعة فهم في مأمن من السقوط، ولو سقط أحدهم فإن أرضهم ذات السهول الرملية اللينة لن تشكل مرتطما مؤلما بالنسبة له.

ومما يتميز به البيظاني ويظهر مهارته الفائقة وافتخاره أن يمتطي الفرس ويجريها في مضمار الحلبة، ويثني عنانها أثناء العدو فتقف أو يرخي العنان فيتمادى الفرس في العدو.

ولاعلي (بن أعمر بن هنون) فرس أبيض قد صبغ ذيله الطويل بالحناء...

والفرس غالي الثمن، فهو السريع العدو المسهل للهجمات المفاجئة.

وغذاء الفرس عندهم يكون من اللبن أساسا وبكمية كبيرة...

..من الصعب علي أن أعطي رقما إجماليا للبيظان الموجودين في مملكة أعلي.

على أن قوة هذه الإمارة تكمن أساسا في خيالتها، وخيل أولاد امبارك مذللة نشطة تهجم بسرعة خاطفة وعلى حين غفلة.

ولكل رجل من أولاد امبارك فرسه وسلاحه، وهذا السلاح قد يكون سيفا طويلا، أو مدفعا ذا طلقتين وكنانة جلدية حمراء لتخزين الرصاص ووعاء مملوءا من مسحوق الرصاص، والكل معلق تحت إبط الفارس.

وليس للفارس من أولاد امبارك راتب ولا جائزة تمنح له وإنما نفله من المعركة وسببه هو ما يتحصل عليه.

لم يكن أولاد امبارك كثيري العدد، إلا أن أعلي عندما أعد العدة لقتال بمباره فقد علمت أن جيشه كان ألفي فارس، وقيل إن الألفين لا يشكلان إلا عددا محدودا من فرسان مملكته.

إن خيل البيظان خيل عراب في غاية الجمال، وكثيرا ما رغب ملوك الزنوج المجاورون وأمراؤهم في شرائها ويدفعون أثمانا طائلة فيها».

هوامش:

1 – الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، لصالح ولد عبد الوهاب، جزء أولاد لعويزي.

2 – الحسوة... مرجع سابق، جزء فاته.

3 – ابن اطوير الجنة: تاريخ ابن اطوير الجنة، الهامش 177 ، حوادث 1210 هـ وكذلك الناني بن الحسين: إمارة أولاد امبارك، ص: 97.

4 – الحسوة.. م.س، جزء فونتي

5 – مر بعدة ممالك زنجية هي: "كوندو" و"كاسوه" و"كارتا"، وهي ممالك كانت موجودة في الشرق السينغالي والغرب المالي.

6 – Mong Park : Voyage dans l'interieur de l'Afrique (Traduit par Adrian Adams) Ed. La Découverte Paris 1996

---

1 – المركنتيلية : نظام اقتصادي ظهرفي اوروبا بعد تقلص وتراجع الاقطاعية، فظهر الاهتمام بتعزيز ثروة الدولة بتنظيم الاقتصاد واعتبار المعادن وخاصة الثمينة منها ثروة الدولة الأساسية.

قال ابن عبد البر

«قال مسروق الوراق في أهل الرأي»:

كنا من الدين والأخلاق في سعة
حتي ابتلينا بأصحاب المقاييس
أما الغريب فقوم لا عطاء لهم
وفي الموالي علامات المفاليس

فبعث اليه ابو حنيفة بدراهم فقال:

إذا ما الناس يوما باد هونا
بأبدة من الفتيا طريفه
أتيناهم بمقياس صحيح
صليب من طراز أبي حنيفه
إذا سمع الفقيه به وعاه
وأدرجه بحبر في صحيفه

م ت

قراءة لجدلية الحضور والغياب في قصيدة "وردة الصقيع"

لصلاح عبد الصبور

محمد الأمين ولد مولاي ابراهيم

باحث في السرديات الموريتانية، مقيم بالقاهرة

1 - تأسيس القراءة:

1 - 0 - تتنزل قصيدة «وردة الصقيع» في مرحلة مهمة من تاريخ حياة صلاح عبد الصبور من حيث أنها تأتي كما قال الأستاذ صلاح فضل بعد أن مضى وقت غير طويل على هزيمة 1967 بعد أن ابتعدنا قليلا «عن سكرة النكسة وجاءت فكرة مواجهة الهزيمة الداخلية للإنسان العربي»(1).

ومن هنا حرص الشاعر على تثبيت تاريخ كتابتها من يناير 1971 وحتى مارس 1971

إزدواجية العتبة:

ومن شأن هذا التثبيت إضافة إلى القولة التي قدم بها الشاعر قصيدته، وهي قولة لمحي الدين بن عربي: من شأنهما أن يفتحا القصيدة على القراءة إذ هما كما يقول جيرار جنت: "عتبة" يمكن الولوج منها إلى عالم النص وفك شفرة رموزه المزدحمة، وهي رموز يعسر على القارئ العادي أن يتجاوب معها أو أن يفككها ويعيد بناءها وفقا لدرجة أفق انتظاره الشعري.

يمكن إذن أن نتخذ من هذه العتبة المزدوجة مدخلا نلج به عالم القصيدة، فمن شأن التثبيت التاريخي للنص أن يحيلنا على الحقل الذاتي السيري والجمعي للشاعر وفي الجانب الحياتي السياسي والاجتماعي من حياته، وهو حقل سيسهم لا محالة في تأويل مضامين النص من الزاوية السياسية، للقصيدة إذ القصيدة من ديوان "شجر الليل" وهو ديوان شعر سياسي يقوم بترميز التاريخ.

ولاشك أن الاستمرار في ترهين مضامين القصيدة

في هذا الاتجاه من شأنه أن يفتح النص على أبعاد ودلالات سياسية واجتماعية عميقة ترتبط بالحيز الزمني الذي أشرنا إليه سابقا وهو ما تعمدنا في هذه المقاربة أن نتركه للقارئ، كل بحسب قدرته التأويلية وسعة اطلاعه الثقافي، كصيغة من صيغ إشراك القارئ في هذا الجهد.

1 - 1 - وإذ يتكفل الرمز التاريخي الذي عمد إليه الشاعر (العتبة الأولى) بفتح النص على آفاق دلالية مضمونية تحكي سيرة الشاعر في حيز زماني معين. فإن الرمز الصوري المتمثل في تثبيت الشاعر لقولة ابن عربي فوق النص، سوف يفتح الصياغة الأدبية الشعرية لهذا المضمون على عالم التجربة الصوفية، وما فيها من خصوبة فنية تفتح النص على أغوار المجهول وتلبسه رداء من الصور تجعل القصيدة تتأبى على التأويل الواحد، وهو ما يكسي شفراتها تعددية التأويل والتجدد ويصبح قارئها مشاركا في خلقها واستمرارها.

وانطلاقا من هذه العتبة المزدوجة يمكن أن ندخل عالم هذه القصيدة بأفق انتظار أكثر خصوبة من أفق انتظار قارئ عادي، غير أن إعداد العتبة أو المدخل و تنزيل النص في سياقه التاريخي، لا يفيان وحدهما باستدرار معانيه واستكناه عالمه المجهول، فالنص يبقى برمزيته الموغلة في الغموض إلى حد المفارقات، يبقى متمنعا عنا ما لم نقف على الخيط الداخلي الماسك بعناصره باعتباره الأداة التي ستوصلنا إلى حظنا من تحليله وتأويله. فنكون بذلك قد شاركنا -على قدر توفيقنا في اختيار هذه الأداة- في قراءة النص، قراءة تظل مجرد واحدة من بين أخريات تختلف عنها في المنطلق والأداة.

1-2 - هذا النص في نظري يمكن أن ينظر إليه من خلال ثنائية: الحضور والغياب، فهي ثنائية تحكم بناءه إحكاما وتخلق معانيه ومضامينه خلقا جديدا. فهي زاوية من الزوايا التي من خلالها يمكن أن نقف على بناء نصي له. وعلى دلالة يشي بها هذا البناء، فالنص يقوم على حركة سداسية تحكم أبياته الخمسة والستين. ويمكن أن نقف علي البناء الخارجي للنص من خلال الحركات التالية:

أ - حركة أولى تبدأ من البيت الأول وتنتهي عند البيت الثاني عشر (1 - 12)

ب - حركة ثانية تضم الأبيات (13 - 21)

ج - حركة ثالثة تضم الأبيات (22 - 35)

د - حركة رابعة تضم الأبيات (36 - 43)

هـ - حركة خامسة تضم الأبيات (44 - 54)

و - حركة سادسة وتضم الأبيات (55 - 65)

أما النص في بنائه الداخلي فمحكوم بثنائية داخلية تمسك بلحمته وتقبض على مجاميعه، هي ثنائية (الحضور والغياب)، وهي الثنائية التي يصرح بها النص ذاته في البيت السابع والعشرين حين يقول الشاعر:

أبحث عنك في الخطى المفارقة
يقودها إلى لا شيء لا مكان
وهم الانتظار والحضور والغياب.

1 - 3 - من شأن هذه الثنائية أن تكشف لنا عن معاني ودلالات النص وأن تفتح قراءتنا له على المجالين السابقين:

- مجال ترهين النص: وهو المتعلق بربط مضامينه

بالبعد السيري والاجتماعي للشاعر وبالفترة التي حدد بها مجال إبداعه. وهذا المجال سيبين عنه مسار العنصر الأول من الثنائية في النص (الحضور)، وتمظهرات هذا الحضور داخل بنية النص.

– أما المجال الثاني: مجال صيغة النص، فمتعلق بالصياغة الأدبية الشعرية للقصيدة. إذ أن اختيار الشاعر التجربة الصوفية إطارا مرجعيا لتجربته الشعرية حين قدم لقصيدته بلسان حال المتصوف محي الدين بن عربي قائلا: "ولم أزد فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى العبارات الإلهية والتنازلات الروحية والمناسبات العلوية جريا على طريقتنا المثلى" هو اختيار لطريقة في القول الشعري تتبنى "الإيماء" وتنأى عن التصريح، تنكب سبل الحقيقة وتتعلق بطرق المجاز وصور تجلياته. وهو اختيار من شأنه أن يؤسس في هذه القصيدة "أبانة من القول" خاصة، هي إلى التعبير الصوفي أقرب، وإلى صياغته الشعرية ومواطن مأتى الحسن فيه أدخل. وهي الصياغة التي سوف نقف على مظاهرها في النص من خلال تقصينا للطرف الثاني من الثنائية (الغياب).

1 – 4 – وعلي الرغم مما يطبع هذه القصيدة من غموض في المعاني والدلالة مأتاه ما احتوته من مشكل ترميز تنجم عنه حيرة المتلقي. وعلي الرغم من تمنع هذا النص عن الانصياع السهل أمام القراءة السريعة غير المتأنية، على الرغم من كل هذا فإن المتمعن فيه يلاحظ أن الخطاب الشعري في هذا النص يؤسس قولا من الشعر يسعى إلى الإبانة عن معانيه ودلالاته من خلال ثنائية (الحضور والغياب). وهي ثنائية سنلاحظ استمرارها في حركات النص الست: بتمظهرات مختلفة وفقا لحالة المتكلم في النص. وهي أيضا الثنائية التي ستكشف عن هذه التمظهرات من خلال علاقتها بضمير المتكلم والمخاطب في النص.

2 - القراءة:

2 – 0 – تبدأ القصيدة ب: "أبحث عنك" وهو ما يعني أن الخطاب الشعري ينبني في تلفظه على صيغة ضمير المتكلم وكاف الخطاب. فالتجربة الشعرية في هذا النص تروى بضمير المتكلم وضمير المخاطب لعلاقة كل منهما بالآخر. والقصيدة كلها تروي قصة هذه العلاقة، وسواء كان الخطاب في النص تعبيرا عن النفس أو عن الحقيقة أو المستحيل أو أي شيء آخر مما يمكن أن تدل عليه "الوردة" فإن تتبعنا لقصة العلاقة ما بين كاف المخاطب وضمير المتكلم في النص كما رواها الشاعر وكما أسسها القول الشعري في النص، من شأنه أن يكشف لنا عن بعض خبايا هذا النص.

فكيف رُويت قصة هذه العلاقة؟

2 – 1 – في الحركة الأولى (1 – 12) وهي حركة يمكن أن نعنونها ب: "لحظة الحلم"، تبدأ مسيرة البحث عن المخاطبة الذي أفتتح به الشاعر قصيدته فيرى مخاطبته:

كالنجوم عارية
نائمة مبعثرة
مشوقة للوصل والمسامرة
ولاقتراح الخمر والغناء.

فهي تتراآى له وتظهر، ولكن هذا الظهور والتجلي لا

يلبث "-حينما تهتز أجفانه- أن يتحول إلى غياب فتفلت من" شباك رؤيته المنحسرة. فيكون مصير المخاطِب الإعياء والإغماء. وعلى هذه الصورة تنغلق الحركة الأولى من بحث الشاعر عن مخاطَبته فقد ولّد الظهور رغبة الوصل والمسامرة. لكن هذا الظهور ما لبث أن تحول في أحداق الشاعر إلى رؤية منحسرة لا تلبث أن تغيب عن أم عينه فيكون الحضور غيبة، وهي الغيبة التي لا تلبث أن تتلبس بالشاعر معاناة تحرق نفسه وتصيبه بالإعياء. فهل نحن إزاء لحظة تجل ومكاشفة لا تلبث أن تصيب المحب بالدوار والإغماء فيسقط ضحية لحظة المكاشفة على لغة أهل التصوف؟

أم نحن إزاء لحظة التحرر من حلم سعيد لا يريد المحب أن يفيق منه فيصدمه الواقع بالإنكسار والإغماء؟ لنر كيف تبين الحركة الثانية عن خبايا القصة؟

2 - 2 - في الحركة الثانية: (13 - 21)

تستمر عملية البحث عن المنشود، ويتبدل المكان والزمان: فيبحث عنها في "مقاهي آخر المساء" وفي المطاعم، فيكون الظهور مدعاة الفرح والاستبشار:

أراك تجلسين جلسة النداء الباسم
ضاحكة مستبشرة.

غير أن الشاعر وهو يحاول أن يحول هذا الحلم السعيد إلى حقيقة لا يلبث أن تنفلت منه "خيوط وهم مخاطبته" فيذوب طيفها، ويقفر منها المقعد والمائدة ويصبح المكان خلوا منها كالصحراء. فيتحول الحضور غيابا والكائن عدما ونعود من جديد إلى ما يشبه أحوال المتصوفة ومقاماتهم ومراتب قولهم وصيغ إجرائه.

ولئن ماثل مشهد هذه الحركة سابقه في تحول الحضور غيابا والشهادة غيبة فإن هذه الحركة قد باينت سابقتها في أنها لم تبن لنا عن أثر الغياب في نفس الشاعر، فالشاعر لم يحك لنا هذه المرة عن أثر الغياب في نفسه كما فعل في الحركة السابقة، الشيء الذي يمكن معه القول إن الشاعر مازال متمسكا بحضوره، متعلقا بلحظة مكاشفة لا يريدها أن تغيب رغم حركة الزمن ورغم "قوة الشهود" -على لغة المتصوفة- وكأنه بذلك يسعى إلي نفي الغياب. وسيكون نفي الغياب وسيلته الوحيدة في التمسك بحلمه وطريقه إلى البحث عن مخاطبته، وهو ما سيظهر على مستوى النص في الحركة الموالية: وقد تمثل ذلك في توالي متتالية أو متواليات من اللازمة "أبحث عنك" تشير كلها بسعي دؤوب من الأنا إلى الإمساك بحلمه كمن يلهث خلف سراب.

2 - 3 + في هذه الحركة الثالثة (22 - 35)

تتكثف عملية البحث عن المفقود فالشاعر يبحث عن مخاطبته في كل مكان: في العطور، في الخطى، في معاطف الشتاء، في كل مكان. وكأن الشاعر لا يريد أن يفقد لحظة المكاشفة، لحظة الحضور السابقة. وقد انعكس هذا التمسك على مستوى النص بهذا التكرار للجملة: "أبحث عنك":

- أبحث عنك في العطور القلقة
كأنها تطل من نوافذ الثياب
أبحث عنك في الخطى المفارقة
يقودها إلى لاشيء مكان
وهم الانتظار والحضور والغياب
أبحث عنك في معاطف الشتاء إذ تلف
وتصبح الأجسام في الظلام

تورية ملفوفة...

وهو التكرار الذي سوف يعززه الشاعر في المرحلة اللاحقة بمعزز آخر هو التخيل، الشيء الذي سيمكن من التمسك أكثر بعالم حلمه وبلحظة تجليه.

2 - 4 + ففي الحركة الرابعة (36 - 43) يعزز الشاعر أساليب تمسكه وبحثه عن مخاطبته بتخيل عبرت عنه على مستوى النص سلسلة أحوال لم نقف عليها في الحركات السابقة:

- أبحث عنك في مفارق الطريق
واقفة ذاهلة في لحظة التجلي
منصوبة كخيمة من الحرير

فعبر هذا التخيل المستمر لمخاطبته يجدد الشاعر لحظة المكاشفة والتجلي السابقة، وينفي الغياب عن "عالم شهوده". غير أن هذه اللحظة، لحظة تجديد المكاشفة والتجلي لم تدم طويلا كسابقتها، فهي لم تبدأ حتى انتهت:

- ويبتدي لينتهي حوارنا القصير.

لم تدم زمنية تجديد لحظة المكاشفة والتجلي عند الشاعر لأنه أراد أن يحول الحقيقة إلى تخيل والوهم إلى ذات. فتخلى بذلك عن صيغته السابقة في نفي الغياب التي هي التخيل والتمسك بشظايا الحلم فجاء الحوار قصيرا غير أن ذلك لم يمنع الشاعر من الاستمرار في بحثه عن مخاطبته.

2 - 5 + فمرة أخرى يعود صلاح عبد الصبور إلى البحث عن مخاطبته والاستمرار في التمسك ببقايا الحلم في الحركة الموالية، عودا على بدء، فتنغلق الدائرة، دائرة البحث عبر التمسك ببقايا الحلم ونفي الغياب في الحركة الخامسة (44 - 54)

- أبحث عنك في مرايا علب المساء والمصاعد
أبحث عنك في زحام الهمهمات
معقودة ملتفة في أسقف المساجد
أبحث عنك في المتاجر
أبحث عنك في محطات القطار والمعابر
في الكتب الصفراء والبيضاء والمحابر
وفي حدائق الأطفال والمقابر
أنظر في عيون الناس جامد الأحداق
كأنني أسأل كل عابر.
آوي إلى بيتي في الليل الأخير
أنتظر انبثاقك البغتة كالحقيقة.

في هذه الحركة ننغمس مع الشاعر من جديد في سلسلة من "اللوازم" التي هي أشبه بتكرار "الوارد" (2) عند المتصوف الطالب الفتح الأكبر (3) والنافي لعالم الشهود (4) في طلب لحظة المكاشفة "انتظر انبثاقك البغتة كالحقيقة" فكأن الشاعر أراد أن يعود إلى ما كان عليه قبل لحظة المكاشفة الثانية، أن يعود إليه من خلال انغماسه في "وارد" من تكرار البحث و"اللوازم" ليعود إلى بدئه في محاولة للقبض على لحظة الزمن والإمساك بالغائب. متوخيا بذلك مسلك التجربة الصوفية عند طلب "المريد" للحظة المكاشفة وانبثاق الحقيقة.

+ انتظر انبثاقك البغتة كالحقيقة

2- 6 - وقد أفضى هذا الانغماس بالشاعر إلى درجة أخرى من الحلم مثلته آخر حركات النص (55 - 65) تحولت معها مواقع التلفظ على مستوى القول الشعري: فتحول المخاطِب إلى "مناد" وتحولت المخاطبة إلى "منادى"، وهو تحول ستستمر معه ثنائية الحضور والغياب بتمظهر آخر لا يختلف عن التمظهرات السابقة إلا من حيث أن الحضور في هذه الحركة يتلبس بالمنادي (الشاعر) والمنادى (المخاطبة)، أو من حيث أن تنوع

وتحول صور المنادى (المخاطبة) ليس من جنس المنادى الظاهر البادي للعيان، فهو "سفينة وهمية المسار" و"وردة صقيع"، "عاصفة محكمة الأسر خلف فصول الزمن الدوار"؛ بل هو من جنس المتحول الدوار، يقول عبد الصبور:

+ أيتها السفينة الوهمية المسار
يا وردة الصقيع
أيتها العاصفة المحكمة الأسر
خلف فصول الزمن الدوار.

2 - 7 - لقد أدى هذا التحول في موقع التلفظ إلى نوع من الانفصال ما بين المخاطِب والمخاطَب، وهو الانفصال الذي قضى على كل المسكنات التي سعى (المتنائم) -إن صح هذا التعبير- إلى تعاطيها إلى الإحتفاظ بحلمه السعيد، فقد فشلت كل تجاربه في الإمساك بالطيف المتجلي، ابتداء من المسكنات اللفظية وحلقات تكرار "اللازمة": "أبحث عنك" على طريقة المتصوفة. وانتهاء "بالمسكنات الذهنية" عبر تجربة التخيل والاستسلام له والسعي إلى إعادة تكرار تخيل الصورة المفقودة، في محاولة لتجديد لحظة المكاشفة والتجلي بعد أن أفلتت منه المرة الأولى.

2 - 8 - لقد فشلت كل محاولات عبد الصبور في الاحتفاظ بتجلي حلمه (مخاطبته) والإمساك بهذا الحلم فترة، فانتصر الغياب على الحضور. بعبارة أخرى لقد فشل الشاعر في أن يحتفظ بنفسه ذاتا حالة متملصة من واقعها وهمومها. فكان الانفصال بداية لتجربة أخرى ستروي قصة العلاقة ما بين "المنادي" و"المنادى" هذه المرة، وهي الرواية التي غيرت مواقع التلفظ الشعري على مستوى الخطاب الشعري كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

لقد كانت لحظة الانفصال في القصيدة ما بين الشاعر وحلمه لحظة حاسمة، فهي لم تفصل فقط ما بين الشاعر وتجلي حلمه وسعيه الدؤوب إلى الإمساك به؛ بل إنها قد أعادت ترتيب علاقة هذا الشاعر بمخاطبته وفق معطيات جديدة لا تقوم على "صيغة البحث" التي كرستها الحركات النصية الخمس السابقة، وإنما تنبني هذه المرة على الإقرار بالانفصال المكاني ما بينه وبين مخاطبته وهو ما جسده في النص "أسلوب النداء":

+ أيتها السفينة الوهمية المسار
يا وردة الصقيع
أيتها العاصفة المحكمة الأسر
خلف فصول الزمن الدوار
- حتى إذا طال انتظاري المرير
شربت كأس الخمر والدوار
كأنني ألتذ باليأس والانكسار
وأورق اليقين
أن مستحيلا قاطعا كالسيف
لقاؤنا
إلا للمحة من طرف.

غير أن هذا الانفصال المكاني قد ولد في نفس الشاعر نوعا من الضجر وملل الانتظار، انجر عنه انغماس الشاعر في عالم الخمرة ودوارها.

وكأن اللقاء بين المنادي والمنادى أو بين المخاطِب والمخاطبة لا يمكن أن يتم إلا في عالم مفارق لعالمنا، فقد رأينا أن الشاعر في الحركة الماضية قد حاول أن يقيم هذا اللقاء داخل "حلقة ذكر" شبيهة بحلقة الذكر الصوفية بعد أن جرب حلقة التخيل وطرق تجديد العلم، غير أن كل هذا لم ينفع في القبض على أو الإمساك

بلحظة حلمه المنشود فكانت تجربة الخمر آخر محطاته، لكنها محطة هذه المرة ليست معبرا أو صيغة للاحتفاظ بلحظة المكاشفة أو التمسك بالحلم السعيد أو البحث عن المطلوب، ليست هذا كله؛ إنها ملاذ الشاعر الوحيد بعد أن وصل إلى "اليقين" وقد انتهت به مسيرة البحث بمختلف محطاتها التي وقفنا عليها إلى يقين باستحالة اللقاء "إلا للمحة من طرف".

+ وأورق اليقين
أن مستحيلا قاطعا كالسيف
لقاؤنا
إلا للمحة من طرف (5)

قد رافق هذا اليقين على مستوى النص توحد في ضمير الإخبار بعد تعدده وتعدد صيغه وهو ما تجلى في قول الشاعر: "لقاؤنا" وهو التوحد الذي ينبني على الوعي بالتعدد والاختلاف.

2 - 9 - على هذا النحو بنى صلاح عبد الصبور تجربته الشعرية على هذه الصورة، وهي الصورة التي أظهر التحليل تركيزها على حركات ست مثلت مراحل بحث الأنا المتكلم عن مخاطبته. وهي المراحل التي كشفت في حركتها عما أسميناه ب: "قصة علاقة المتكلم بمخاطبته في النص". وقد كان مسعانا في ذلك الوقوف على البناء الداخلي للخطاب الشعري كما بناه الشاعر في القصيدة. فالقصيدة كما أبان عن ذلك التفكيك الداخلي للنص -قصة بحث المتكلم عن مخاطبته- وقد انتهى بنا التحليل إلي تعددية أوجه شبه هذا البحث، مما أعطى للنص خصوبته التأويلية. وهي خصوبة تزداد ثراء كلما تعلق الأمر بالاستفسار عن ماهية المخاطبة، وهو ما حرصنا على أن يظل ملكا للقارئ، مجارين الشاعر في تأسيس هذا الإبهام ليظل النص مفتوحا على القراءة والتأويل.

2 - 10 - ولئن ضربنا صفحا عن تحديد هذا البعد التجريدي في النص، فإننا سوف نلاحظ أن قصة "المخاطِب والمخاطبة" في النص قد رُويت بأسلوب يعتمد على ما أسماه أستاذنا الدكتور صلاح فضل: «تجسيد مفردات المواقف الشعرية في مشاهد مصورة تخضع لنظام السيناريو المرتب المكون غالبا من لوحات بصرية حتى وهو يمعن في متابعة "شيء تجريدي"» (6)

فقد تعمد الشاعر أن يلاحق مخاطبته ملاحقة تعتمد التصوير الحسي والإخراج الحكائي تقنية ووسيلة في التعبير عما يريد البوح به حتى وإن كان ذا طابع تجريدي غير مصرح به. وكأننا في هذه التقنية من القول الشعري أمام تجل آخر من تجليات ثنائية الحضور والغياب، حضور القول والبناء وكل ما يكون به الشعر شعرا. وغياب الدلالة الأحادية المحاصرة والمختزلة لهذا القول والبناء، حضور كل ما يؤتي الكلام حسنه وغياب كل ما يعطل الدلالة وبعبارة أخرى:

حضور كل ما يؤسس النص ويجعله منفتحا على القراءة وغياب كل ما يحاصر الدلالة ويجعلها أمرا منتهيا بكلمة واحدة: حضور النص وغياب القراءة.

هوامش:

(1) شفرات النص: أ.د. صلاح فضل، دارالفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1990، ص: 39

(2) الوارد: هو تكرار للفظ الشهادة "لا إله إلا الله" بصورة متتالية وبحالة من الاستغراق التام للمريد حتى تتكشف له الحقيقة الإلهية.

(3) الفتح الأكبر: مرتبة من مراتب العقيدة عند المتصوفة.

(4) عالم الشهود: هو العالم المشاهد، هو الظاهر، ونفي هذا العالم هو الذي يتم فيه عند المتصوفة الكذب والتحقق وهما مرتبتان من مراتب الحقيقة.

(5) ديوان صلاح عبد الصبور، المجلد الثالث «شجر الليل» ط. دار العودة، بيروت

(6) أ. د. صلاح فضل: شفرات النص: ص: 45 ط. الأولى 1990، مرجع سابق.

استقبال طيف الحبيبة في الشعر الموريتاني القديم

السالكة بنت اسنيد

قسم البرامج بالاذاعة الوطنية

استقبال طيف الحبيبة في الشعر الموريتاني القديم:

– السالكة بنت اسنيد قسم البرامج بالاذاعة الوطنية

يعد الغزل أحد المواضيع الأدبية المطروقة، وقد احتل مكانة سامية في القصيدة العربية، فكأن الإستهلال بالغزل عادة درج عليها شعراء العربية الأوائل باستثناء عمرو بن كلثوم الذي استهل معلقته داعيا لشرب الخمور المعتقة:

ألا هبني بصحنك فأصبحينا

ولا تبقي خمور الأندرينا

وقد وصف الشاعر العربي الربوع العربية الخالية وبكاها ودعا الصاحب لمشاركة البكاء واصفا الرحيل والخرائد ومختلف ادواتها للرحيل وماشي الركب والحدوج.

وهكذا تنوعت أشكال الغزل وتفنن الشعراء في مواضيعه فوصفوا مفاتن الحبيبة وطرقها في الغنج والتدلل وتعرضوا لمختلف أساليب السمر واصفين ليل العاشقين بالطول والتمدد علي حساب لوعة الحب وحرقة البين وانعدام اللقاء.

وقد كان طيف الحبيبة من بين الموضوعات الغزلية التي أذكت الإبداع عند الشعراء، فحولوا مطالع قصائدهم الي لوحات فنية بارعة، مستخدمين الشعور النفسي الذي يغذوه وحرقة البين في تعميق المشاهد. فكيف؟ بداية إذا لم أتوصل إلى تعريف نظري محدد لظاهرة الطيف فقد مالت نفسي إلى هذا التعريف:

الطيف : هو زيارة الحبيبة للحبيب في النوم متجاوزة الصعاب تاركة لهيبا من اللوعة والألم والتفرد لهذا الحبيب.

وقد تعرض الشاعر الموريتاني لكل أنواع الغزل وشكل الطيف أحد اهتماماته التي طغت علي ملكته الفنية – وسأحاول في هذه المعالجة السريعة أن أتتبع بعض لحظات الطيف التي يتم فيها الالتحام بين الشاعر وحبيبته في مجتمع بدوي محافظ، فنري كيف يتعامل مع هذا النمط من الزيارة!؟ وماهي الأشكال التي تزور عليها الحبيبة؟

ان الشاعر يتعامل مع رموز مختلفة للتعبير عن الطيف وجعله يدخل ضمن اشياء أخرى لتلوين المشهد وإغناء الصورة الشعرية بآليات فنية مختلفة تثير الهوى والأرق والذكرى، ونبدأ بتعامل عبد الله بن محمد المعروف بابن رازقه مع هذه اللحظة، عند زيارة الطيف:

أثار الهوى سجع الحمام المغرد
وأرقني الطيف الذي لم أطرد
وذكر التي بالقلب خيم حبها
والبسني شوقا غلالة مكمد
فبت أقاسي ليلة نابغية
تعرفني هم السليم المسهد

وهكذا تتزامن زيارة طيف الحبيبة مع إثارة الشوق والذكريات العزيزة، ومع ان الشاعر يعرف أنه يتعامل مع خيال في لحظة من لحظات النوم فإنه يمنحه الترحيب والحفاوة، ويستقبله بمختلف صنوف الفرح والابتهاج وذلك علي الرغم من اللوعة التي تعقب الزيارة وما تثيره من لواعج الشوق، وهذا محمد ولد محمدي يقاسي إحدى لحظات الزيارة علي هذا النحو:

أثار من التذكر حين زارا
خيال من أميمة ماأنارا
سري بعد الغدو فما أعيرت
قلوب العاشقين كما أعارا
وكم بعث الخيال لذي انتزاح
نزوعا للأحبة وأدكارا
ألا أهلا بها ولو استحالت
علي قرب زيارتها أزورارا

ويحدث أمحمد ولد الطلبه زمن زيارة الطبق بالليل مبينا الظروف العاطفية التي تركته فيها زيارة الطيف بعد أن حرمه لحظة الراحة، المتمثلة في الهجوع آخر الليل محركا أشواقه وهواه، بعد الهدوء والوقار وسكون الليل. وبعد ان بين كل هذه الانطباعات تجاوز إلى وصف مفاتن المحبوبة الزائرة مبالغا في قصر الزيارة ونشوة التقارب بين لحظتها ولحظة الوداع:

تأوبه طيف الخيال بمريما
فبات معنا مستجنا متيما
تأوبه بعد الهجوع فهاضة
وأبدى عن التهيام ماكان جمجما
لطاف بها حتى إذا النفس اجهشت
وأبدت بنانا لي خضيبا ومعصما
ووجها كأن البدر ليلة اربع
وعشر عليه ناصلا قد تهمما
تولي كأن اللمح بالطرف زوره
وكان وداعا منه ان هو سلما

ويواصل محمد استكناه بقية الصورة فيجمع كل عناصرها المشكلة للمشهد.

فبات الهوى يستن بي هيجانه
فأسري بلبي ماتبقي والحما

وبت بهم لاصباح لليلة

إذا ما حواه الصبح كر ودوما

فقلت أما الليل صبح كما أرى

أم الصبح مما هيج الطيف أظلما

ويطرق سيدي محمد ولد الشيخ سيديا هذا الموضوع من زاويته الخاصة مستهلا بالتساؤل عن زيارة الطيف ومايبعثه من حرج في نفسه مما يجعلنا نتساءل عن الرقيب الديني ودرجة حضوره في هذه اللحظة من حياة الشيخ الشاعر الفنان، مبينا أن أفضل البر هو وصل مغرم دنف لغانية في طرفها دعج.

ياليت شعري هل في زورة حرج

لمن لها بعد أن نام الورى دلج

من اعظم الب مثوي مغرم دنف

عن وصل غانية في طرفها دعج

لاسيما إن يكن بالقرب منزلها

ولالها حارس يخشاه من يلج

ونلقاه في لحظة اخرى من لحظات الطيف يذكر بالازق الذي أثاره الزائر وما فجره في خلده من مكنون آلام الغرام مبينا أن كل هذه التأثيرات لها مايبررها إذا علمنا درجة جمال المنظر وحسن الصوت والنظرات لدى المحبوبة.

ارقت عيناك من طيف ألم

هاج للمحزون مكنون الألم

زار من أنت تهوى موهنا

برخيم الصوت مكحول أحم

وتتبع لحظات الطيف مع سيدي عبد الله ولد احمد دام فنراه يوغل في وصف طول المسافة التي تفصل بينه ودار الحبيبة في الوقت الذي يتحدى طيفها الفيافي حتى وصل إليه في وقت تنبيه القطا، ويحاور مبرزا الإنطباع الذي تكون لديه اثناء هذه الزيارة...

جابت علي شخط المزار نوارد

فيحا اليك متونهن قفار

يلقى بها غرد الصدي متوسطا

تيها يتيه بها القطا ويحار

لولا القتير وأربعون لأسبلت

مني عليها دمعة مدرار

وتتشابك العواطف والثقافة الاسلامية والروحية في تعامل محمذن ولد السالم مع طيف الحبيبة فيتوزع بين الرغبة الجامحة في الترحيب بالحبيبة والتزاماته الفقهية والتصوفية وبعد أن يصف صعوبة التغلب علي هذا الصراع مبينا عمق التحدي يحسم الصراع بالعقل علي حساب العواطف لصالح التزاماته للشيخ.

أهلا وسهلا بطيف الخود فاطمة

لكن رقية آل الشيخ في عنق

طافت بنا بعد تهجيع فقلت لها

بث الكرام ألا لاوصل فانطلق

لا تحسبي نفثات الشيخ مبقية

مرمى لنيل لحاظ الجؤذر الخرق

لو كنت أصبوا الي خود لكنت ولـ

كن ليس وصل الغواني اليوم من خلق

لا ينبغي لإمرئ أمسي نعلقه

بالشيخ يصبوا إلى الجيدانة العنق

ماحضرة الشيخ ملهي عاشق كلف

ولا الكلي والعجمي يجمعن في شدق

ومع الأصول تتصارع هموم الطيف مع طموحات أخرى ولكن التهليل والترحيب حاران تقديرا لهذا الطيف الذي تجاوز الفيافي والصحاري منطلقا علي بساط من الخيال المجنح قاصدا مقر إقامة الحبيب في لحظة من لحظات القنوط من اللقيا، يقول الاحول الحسني:

جادت بطيف سري لي أم عمار
لله لله لقيا طيفها الساري
أهلا به ملم من صوبنا قدمت
بيد لبيد وأصحار لأصحار
لاوصل من أم عمار أو ملة
مالم تزر في منامي أم عمار

ونتابع هذه اللحظات مع محمدو بن حمبل الذي يربط الطيف بالنعاس واد لهام الليل وخيال الزائرة المتحول متخذا من الثقافة التقليدية وعدم إخراج المرأة للبيت ليلا برهانا علي صعوبة المهمة التي قامت بها مسيرة خلال ليلة طويلة لتعبر عن وفائها رغم شط المزار

قائلا :

زارتك إذا زار الجفون كراها
من بعد مامل المطي سراها
في جوز مجهول تلفع ليلة
طمس النجوم عجاجها ودجاها
باتت تجوب وما السرى من دينها
تيما تضل عن الفراغ قضاها
حتى ألمت والنجوم غوارب
بصوارم نكث النعاس قواها

أخيرا:

من خلال هذه الأمثلة تتبعنا مكانة الطيف في نفسية الشاعر الموريتاني، وكف كان الخيال تعويضا عن اللقاء المباشر.

وقد اتفق الشعراء في وصف الطيف وتحديد أوقات الزيارة وعلاقتها بلحظات الهجوع مبينين طول المسافة الفاصلة.

ومن خلال النماذج شاهدنا قاعدة الوصل تحترم وتقوم الحبيبة بعملية الوصال بدل الحبيب متحدية الفيافي والظلمات متجشمة عناء السفر شفقة علي الحبيب، وهو نعويض نفسي جلي، ينعكس علي مرآة حساسة فتشع، تعبيرا عن كثافة الاحساس بالمسافة والزمن والواقع البشري بما يحمله من تقاليد وعادات، فيهرب الشعراء علي أجنحة الخيال من تجهم الواقع القاهر.

قال بعضهم مشفقا علي أهل الرأي:

إن كنت كاذبة بما حدثتني
فعليك إثر ابي حنيفة أو زفر
الوارثين علي القياس تعديا
والناكبين عن الطريقة والأثر

فقال بعض أهل العلم: وددت والله لو أن لي أجرهما وعلي وزرهما.

ويشبه قول حسان:

إن كنت كاذبة بما حدثتني
فنجوت منجي الحارث بن هشام
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم
ونجا برأس طمرة ولجام

النحو الشنقيطي: النشأة والتأصيل

محمدن بن احمد بن المحبوب

(دكتورا السلك الثالث في الأدب العربي)

انه لمن نافلة القول التأكيد على أهمية النحو اذ يتعتبر عماد التفقه في الدين، فبه يرتل الذكر الحكيم ويفهم، ومن خلاله يدفع اللحن وتقوم الألسن. وهذا مايجعل دراسته والتأريخ له والعمل علي تأصيله أمرا ضروريا، بل مشغلا متجددا، لذلك سنسعى إلى كتابة سطور نرجو ان تقدم تصورا – ولو ناقصا – عن الدرس النحوي بهذه البلاد منبهين الي ان تاريخ الثقافة بها يرجع الي مطلع القرن الثاني للهجرة (116 هـ)، غير أن المصادر التاريخية بعد لحظة الفتح الاسلامي قد سادها صمت رهيب امتد حتى اواسط القرن الخامس الهجري لنسمع قليلا عن عبد الله بن ياسين(1) الجزولي مؤسس الرباط، ومدشن أول حلقة تدريسية في البلاد، وينتاب المصادر الثقافية صمت ثان يمتد حتى مطلع القرن العاشر الهجرى . ليزول حينما بدأ التفكير النحوي يدخل الساحة الثقافية علي استحياء مستأنسا بملحة الاعراب للحريري، ومنثور بن آجروم والفية بن مالك، وقطر ندي ابن هشام(2) فماذا عن النحو الشنقيطي؟ وما المراحل التي مرعبرها منذ أن اخرج شطأه حتى اكتمل واستوى علي سوقه؟

ذلك ما نروم محاورته في هذه السطور مشيرين إلي أن النحو بهذه البلاد عرف مراحل متمايزة يمكن إن نوجزها فيما يلي:

أ – المرحلة التعليمية من (900 هـ – 1100 هـ) وخلال هذه الفترة طفق النحو يتسلل إلى البرامج التعليمية، لذلك نجد البرتلي (2) في كتابه «فتح الشكور» يضفي علي بعض مترجميه صفة «النحوية» فقد أورد في كتابه رجلا سماه المختار النحوي بن

- اندعمحمد (ت 922هـ)، وعززه بثان اسمه اند عبد الله المحجوبي (ت 937هـ)، وهذا الاخير شرح الاجرومية(3)، ولا ننسى في هذا السياق أن نذكر الحاج أحمد الصنهاجي التيمبكّتي (ت 943) الذي حج عام تسعين وثمانمائة ولقى النحويين السيوطي، وخالد الازهري، وقد وصفه صاحب فتح الشكور قائلا: «كان فقيها نحويا لغويا عروضيا» (4).

ونضيف هنا محم (محمد) سعيد بن تكّدي اليدالي ( ) الذي عاش في بحر القرن العاشر وارتحل إلى المغرب ليرجع مصطحبا معه شرح المكودي على الالفية، مما جعله رائد اللغويين في جنوب البلاد، وجالب النحو الي القبلة، وذلك ما اوضحه احمد سالم بن ابي بكر بن امام اليدالي (6) عبر فاتحة نظمة لقبيلة قومه يقول (7)

الرجز

وانقرضوا ومنهم السعيد

نجل تكّد العالم الفريد

اول من للقبلة النحو جلب

وماله سوى ثلاث تنتسب

وقد عرف هذا اليدالي باسم النحوي، وأكثر من ذلك فإن احدى بناته أنجبت ببونا والد المختار بن بونا الجكني(8)، ومن هنا فإن ابن بونه وثيق الصلة بابن تكّدى اليدالي، فهو ابن بنته وسبطه ووليد بيئته ووسطه، لذلك يمكن القول ان النحو امتد اليه عبر ثدي تلك الجدة اليدالية، وذلك ماجزم به اللبناني يوسف مقلد(9) حيث يقول : «هذا وقد بلغ النحو اوجه في تلك البلاد... ولا نعلم دخول النحو الي موريتانيا، الا ان محمد سعيد اليدالي كان أول من جلبه إلى القبلة في القرن العاشر الهجري، ولذا سمي بالنحوي ومنه رضعه حفيدة المختار بن بونه الجكني الذي انتهت اليه رئاسة علم النحو» (10).

ونذكر في هذا المقام ايضا عبد الله الملقب باندعبدالله بن احمد الولاتي (ت 1008هـ) والذي ذكر البرتلي انه «كان نحويا فقيها، شرح الاجرومية شرحا حسنا مختصرا» (11)، وكذلك محمد ابن ابي بكر الهاشمي الفلاوي (ت1098هـ) اشار إلى أنه هو الآخر :« كان نحويا فقيها لغويا عارفا بالفقه والنحو مستحضرا لهما، مطلعا علي دقائقهما» (12).

ومما سبق ندرك أن النحو قد بدأ بالحواضر الشرقية والشمالية كتيمبكتوا وولاتة وتافلالت ليمتد بعد ذلك الي المناطق الجنوبية ملقيا عصاه متلبثا غير يسير.

ب – المرحلة التأليفية :

من (1100هـ – 1220هـ) وخلال هذه المرحلة بدأت المؤلفات الشنقيطية ترى النور، وطفق النحو يتجاوز الاخذ الي العطاء معولا علي شرح الظواهر النحوية منتهيا الي جمعها وتفسيرها، مما دعا الي تعدد الطرر والانظام وتزايد الحواشي والشروح. وفي هذه المرحلة تظهر اسماء منها محمد بن آب الغلاوي (ت 1160هـ) الذي اشتهر بمنظومته «عبيد ربه» وهي رجز تعليمي يسر خلاله النحو وسهل منثور بن آجروم، ويقول: (13)

قال عبيد ربه محمد

الله في كل الامور احمد

مصليا علي الرسول المنتقي

وآله وصحبه ذوي التقي

وبعد فالقصد بذا المنظوم

تسهيل منثور بن آجروم

ويأتي المختار الامين الملقب انجبنان الحيبلاوي(14) ليدفع بالتأليف النحوي شوطا بعيدا، باسطا آراءه عبر مؤلفه: « شافي الغليل في علوم الخلاصة والتسهيل» الذي استودعه زبدة ابرز الكتب النحوية فجاء تجربة رائدة في موضوعه. ويعتبر هذا الحيبلاوي شيخ المختار بن بونه وإمامه في النحو، وعلي يد البوني كما هو معلوم تفتقت اكمام اللغة، تفجرت ينابيع الصرف والاعراب فاستوى الخطاب النحوي علي سوقه، واكتمل غب ظهور كتابه « الجامع بين التسهيل والخلاصة، المانع من الحشو والخصاصة».الذي يعتبر العمود الفقري لنحو القوم، فهو أساس المقررات المحظرية عندهم فقد استطاع مؤلفه أن يمزج بمهارة منظومه بمنظوم ابن مالك فامتزجا امتزاج اللبان بالماء، واللحوم بالدماء، فصارا سبيكة واحدة جيدة النظم مختلفة الأشكال لا يمكن الفصل بين أجزائها إلامن خلال لون الحبر حيث اطلع أبناء المحاظر أن يكتبوا نص ابن مالك بالحبر الأسود ليسطروا توشيح المختار بن بونه بالحبر الأحمر.

وبذلك أصبح«الجامع» البوني منطلقا للدراسات النحوية، فتسابق الشناقطة إلى أقفاله، وقد أوصل بعض الدارسين شروحه إلى الثلاثين إحدى عشر منها متوفرة متداولة حاصرة بالمكتبات الشنقيطية اما الشروح الباقية فهي مابين ضائع مفقود او ناقص مبتور.

ج – المرحلة التأصيلية : من (1220هـ – 1360هـ)

وتنطلق هذه المرحلة من السنة التي توفي فيها المختار ابن بونه ابو النحو الشنقيطي وامامه، وقد خلف وراءه عددا من النحاة تكونوا بساحته تكوينا اكاديميا عاليا جعلهم يركنون في درسهم وتدريسهم الي التوسع والتأصيل، فبلغ الدرس النحوي بين اظهرهم اوجه ونضجه. ولعل اول من غدي هذا التوجه التأصيلي عبد الودود بن عبد الله الجيبلاوي (15) رائد الجيل النحوي الاول بعد ابن بونه، ومصحح طرته وتوشيحه عبر كتابه المشهور «روض الحرونمن طرة ابن بون»، وقد تعقب ضمنه عبارات «الترجيح» و«الاصح» : يقول : «فلما كان تقييد الشيخ ابن بونه علي الالفية وعلي توشيحه اياها ظاهر الافادة والمزية وبه اشتغال اهل هذه الجهة، الا ان فيه اطلاقات وتأويلات وتخريجات لايدري مقابلها ابدا سألني بعض اهل العصر تأليفا يبين لغزه ويفتح عويصه ورمزه، وبعد تردد توكلت علي الله وكتبت» (16)

إن هذه العبارات على ايجازها تنطق علينا بمستوى الرجل العالي الذي تجاوز ضمنه ابن بونه الي جو من الجدل النحوي عميق، وذلك ماجعل كتابه ترفا نحويا فائضا بعد التمكن من القواعد التعليمية تمكنا ماهو بالقليل، اذا انصبت جهود الرجل علي الابحاث المتشبعة والآراء البعيدة المغلفة من الفروع والاقيسة باثخن غلاف، وذلك على غرار كتاب الانصاف في مسائل الخلاف..

ويمتد النغم التأصيلي مع محنض بابه بن اعبيد الديماني(17) الذي اعاد الاعتبار الي مؤلفات ابن هشام، معولا علي كتابه،، «مغني اللبيب» الذي نظم منه

نظمين اولهما نظم الجمل، و ثانيهما نظم القواعد الكلية العامة الواردة في بابه الثامن والاخير، وهذا النظم الاخير متميز يعرب عن استيعاب لمادة النحو عميق، فالناظم استطاع ان يثري هذا الباب مكملا شواهده، موسعا مباحثه، مضيفا اليه قاعدة جديدة هي قاعدة التوهم يقول (18) (الرجز)

وبعد فالقصد مما اعني

نظم قواعد اتت في المغني

بني عليها القوم جل ماندر

من المسائل وبعض ما اشتهر

وزدتها واحدة لها ظهور

فبلغت بذاك عدة الشهور

وننتهي الي محمد عال (مع) بن سعيد الحيبلاوي(19) مؤلف كتاب «تنبيه الصغار إلى شرح الاحمرار»، وقد تجاوز ضمنه «الجامع» البوني متمما ومستكملا حينا، ومستنتجا مستدركا احيانا اخرى، وذلك ماحدا ببعض طلبته إلى تقريظ هذا الكتاب قائلا: (20) الوافر

اضفت الي الصغا ركتاب تبر

صوابك أن تضيف إلى الكبار

ولم يكتف محمد عال بهذا القدر بل سطر آراء اجتهادية في مخارج الحروف وصفاتها ناصر خلالها الجيم المتفشية مناهضا رأي سيبويه مؤكدا انه «خالف الجادة العظمي، وجانب الاصح في سبع مسائل» (21)

ونقف قليلا مع الحسن بن زين القناني (22) مثرى النزعة التأصيلية حيث خلف وراءه انظاما نحوية مفيدة لعل ابرزها ذلك الذي حدد ضمنه اهم المصطلحات النحوية مبينا حدودها، محددا الفروق بينها يقول(23) الزجر

تفسير ماشذوما مافشي وما

ندر مع ما بالضعيف وسما

فذو الشذوذ ماعن القياس قد

حاد قليلا او كثيرا ماورد

والنادر القليل قيس او لم

يقس ومافشا بعكسه نمي

آخرها الضعيف وهو كل ما

ثبوته فيه نزاع العلما

ويعتبر الحسن هذا من أحظى شيوخ النحو بالبلد اذ استأثر بتدريس شيخ الاساتذة يخطيه بن عبد الودود (24) امام النحو بعد ابن بونه وفارسه، بل معمق اصوله ومدارسه.

وصفوة القول ان القوم قد سعوا جهدهم الي تعميق الدرس النحوي، منشئين لانفسهم مقررات نحوية خاصة تكشف عن علو كعبهم في اللغة وتمكنهم من ناصيتها اذ تجاوزوا التعلم إلى التعليم، فالمتصفح لمؤلفاتهم النحوية يصادف ايماءات تنطق عليه بمعرفة للاصول النحوية غير ساذجة. غير ان هذه النشاطات اللغوية لم تتجاوز الذكر العابر الي الممارسة والتطبيق مما حال دون تسطير مؤلفات توسم باصول النحو وتصدر عنه، فبقيت معرفة القوم بالاصول النحوية كامنة في المؤلفات كمون النار في الزند، ولم تخرج من القوة الي الفعل.

هوامش:

1- عبد الله بن ياسين الجزولي (ت 451هـ) مقيم الرباط الذي انطلقت منه جيوش الفتح ناشرة الاسلام مكتسحة المغرب والاندلس.

2 - هو الطالب محمد بن ابي بكر بن بنان البرتلي (ت1219هـ) مؤلف كتاب «فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور» ويعتبر اهم مصدر عن الحياة الثقافية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين.

3 - البرتلي : فتح الشكور في معرفة علماء التكرور .تاليف محمد بن بنان البرتلي:تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي:دار الغرب الاسلامي بيروت / الطبعة الأولى 1981 ص: 39

4 - المرجع السابق ، ص: 28

5 - المكودي: هو ابو زيد عبد الرحمن بن صالح المكودي النحوي (ت 842هـ) اخر من درس كتاب سيبويه بفاس، له شرح علي الفية بن مالك.

6 - هو احمد سالم بن ابي بكر بن امام اليدالي، نظامة سجيد، له منظومة رائعة في انساب قبيلته اليداليين (ت 1363هـ)

7 - مخطوط بحوزتنا.

8 - المختارين بونه الجكني (1080 هـ - 1220 هـ) نحوي متكلم راد الحركة النحوية بالبلاد بمؤلفه : «الجامع بين التسهيل والخلاصة المانع من الحشو والخصاصة» كما الف في الفكر الاشعري : «وسيلة السعادة» اخذ عن احمد بن ابي احمد المجلسي وعن ابنه البدوي، كما سمع من خديجة بنت العاقل له ديوان شعري محقق.

9 - محمد يوسف مقلد اديب وشاعر لبناني معاصر (1967 م) زار البلاد الموريتانية وكان علي صلة بالجالية الموريتانية في غرب افريقيا ، الف كتابا عن الحياة الثقافية الادبية في موريتانيا تحت عنوان «كتاب شعراء موريتانيا القدماء والمحدثين».

10 - يوسف مقلد كتاب شعراء موريتانيا القدماء والمحدثين ص : 342.

11 - البرتلي فتح الشكور مرجع سابق ، ص: 159.

12 - المرجع السابق ، ص: 114.

13 - سيدنا عالي بن الشنبكي : تحقيق نظم عبيد ربه، المدرسة العليا للاساتذة، انواكشوط 1985، ص : 28.

14 - هو المختار بن الامين الملقب انجبنان الحيبلاوي نحوي مشهور، عاش في بحر القرن (12هـ) له مؤلفات منها «شافي الغليل في علوم الخلاصة والتسهيل».

15 - عبد الودود بن عبد الله الجيبلاوي نحوي مشهور له منظومات عديدة من ابرز مؤلفاته: «روض الحرون من طرة ابن بون » (ت 1268 هـ).

16 - محمد المختار بن اباه تاريخ النحو في المشرق والمغرب، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ايسيسكو . المغرب 1996، ص : 477.

17 - هو محنض بابه بن اعبيد الديماني (1185هـ - 1277هـ) فقيه متبصر، ونحوي بارز نصبه الامير محمد الحبيب فاقام الحدود، له مؤلفات منها « ميسر الجليل في شرح مختصر خليل» بالاضافة الي ديوان شعري ومنظومات مختلفة.

18 - محمذن بن احمد بن المحبوب: نظم قواعد مغني اللبيب لمحنض بابه بن اعبيد الديماني (دراسة وتحقيق)، المدرسة العليا للاساتذة انواكشوط. 1985 - 1986، ص : 54 - 55 .

19 - محمد عال (مع) بن سيد بن سعيد الجيبلاوي (1220هـ - 1310هـ) عالم نحوي له محظرة مشهورة من آثاره كتاب تنبيه الصغار الي شرح الاحمرار.

20 - الشريف بن احمد محمود: تسجيل التكرار: تاليف اباه بن عبد الله (دراسة وتحقيق) جامعة محمد الاول، كلية الآداب والعلوم الانسانية وجدة 1997 - 1996 ، ص: 58.

21 - محمد المختار بن اباه تاريخ النحو: مرجع سابق، ص : 509/

22 - الحسن بن زيد القناني (1235هـ - 1315هـ) نحوي بارز اخذ عن عبد الودود بن عبد الله الجيبلاوي له نظم مستقبل في محفوظات الجموع، وتوشيح وطرة علي لامية الافعال لابن مالك، اخذ عنه سيبويه عصره يحظيه بن عبد الودود.

23 - ابن اباه : تاريخ النحو: مرجع سابق ، ص: 518.

24 - هو يحظيه بن عبد الودود الجكني نسبا القناني وطنا ومنشأ (1265 هـ - 1358هـ) مدرس فائق وشيخ محظرة وامام حضرة شاذلية، كان مجمع العلماء، ومالف النوابغ. له منظومات وكنا نيش مفيدة وتقييدات هامة بالاضافة الي جملة من الفتاوي والاقضية والامالي، لبث نصف قرن وهويعلم الاجيال ويكون الرجال.

تصنيف العلوم عند العرب

(ج 2)

د. محمد ولد عبد الحي

رئيس قسم الترجمة/ كلية الآداب جامعة نواكشوط

3 - التصنيف المعياري:

لعل أبرز ممثلي هذه الفئة من ذوي الثقافة العامة خلال القرن الهجري الرابع هم الكتاب والوراقون، ومن أشهر هؤلاء صاحب كتاب (مفاتيح العلوم) من الكتاب. وصاحب كتاب (الفهرست) من الوراقين: الأول مصطلحي يعنيه المصطلح، والثاني موسوعي: يعنيه الحصر: يقسم الخوارزمي الكاتب -مفاتيح العلوم- العلوم إلى:

- شرعية وأعجمية.

فالشرعية هي:

- الفقه - الكلام - النحو - الكتابة- الشعر- العروض- الأخبار

والأعجمية هي:

- الفلسفة- المنطق- الطب- العدد- الهندسة- النجوم - الموسيقى- الحيل- الكيمياء.

والخوارزمي يحدد هدفه منذ البداية، فهو كاتب ديوان يتوجه بكتابه إلى بني مهنته. لقد لاحظ أن لكل فرع من فروع العلم معجما لغويا خاصا، وأن بعض الكتاب لا يعي ذلك، فتختلط لديه المصطلحات فأراد أن يسدد هذه الثغرة، وهو يصرح بذلك في مقدمة كتابه.

وعلوم العرب عنده هي المتعلقة بالشرع واللغة، وهما صنوان، لأنهما نشآ زمانيا ومكانيا معا.. والفقه والكلام هما الغاية، واللغة هي الوسيلة، والغاية قبل الوسيلة منزلة.. وبما أن علوم العجم طرأت على العلوم العربية ولم تنشأ معها، فإن فصلها عن المبحث اللغوي مبرر.

وطرافة كتاب الخوارزمي لا تكمن في تلمس الوعي بشبكة العلاقات التي تربط البحث اللغوي ببقية المباحث

العلمية الأخرى فحسب، وإنما الهدف من الكتاب ذاته، وفي الوعي الدقيق، وهو ما جعل من كتابه بحثا لغويا طريفا يخترق كافة العلوم اختراقا عرضيا عن طريق شبكة المصطلح اللغوي، إنه إحساس مبكر بأن «مفاتيح العلوم» ينتظمها سلك واحد هو سلك المبحث اللغوي، سلك علم اللسان.

أما صاحب المنحى الموسوعي فهو ابن النديم الوراق -كتاب الفهرست- وهو يقسم كتابه (الفهرست) هذا إلي عشرة أبواب تضم أقسام المكتبة المعرفية مصنفة إلى أغراضها:

1 - علم اللغة، والكتابان السماويان: التوراة والإنجيل، ثم القرءان الكريم

2 - اللغويون وطبقاتهم.

3 - التراجم والأخبار والأنساب

4 - الشعر والأدب.

5 - الكلام والمتكلمون

6 - الفقه والحديث.

وهذه السنة تمثل عادة العلوم الشرعية وملحقاتها.

7 - الفلسفة: زعلامها وكتبها وترجماتها إلي العربية

8 - الأسماء والروايات والسحر

9 - المذاهب العربية

10 - الكيمياء.

وهذه الأربعة تمثل العلوم العجمية الدخيلة.

ومن البديهي أن صاحب (الفهرست) لا يصنف العلوم انطلاقا من معطى نظري مسبق، وإنما بوصفه وراقا واسع الاطلاع على علوم عصره، فهو يحوصلها دون خلفية فكرية تصنيفية أو نقدية.. وهو، كغيره، يلاحظ أن علم اللسان يقع في مقدمة أي تعداد للعلوم، لأنه وسيلتها الأولى والفاتحة لأية مقاربة تدور حولها.

ولئن اختلفت منطلقات كل مجموعة من المجموعات الثلاث عن الآخريين لاختلاف منظورها الذي دفع بها إلى تصنيف العلوم، والغاية التي ترمي إليها:

الأولى: التأكيد على وحدة المعرفة البشرية

الثانية: مساعدة المتعلم على تذليل صعوبات عملية.

فإن منزلة المبحث اللغوي عند الكل هي الصدارة مع تفاوت في التركيز عليه أو عدمه.

ولقد عاش كل هؤلاء في قمة عصر نضج المعارف في الحضارة العربية الاسلامية، من أواخر القرن الهجري الثالث إلي أواخر القرن الخامس، الذي كانت نهايته بداية خريف هذه الحضارة، فالفارابي عاش الأربعين سنة الأخيرة من عمره في القرن الرابع، وإخوان الصفاء والخوارزمي الكاتب وابن النديم كلهم عاشوا في بحر القرن الرابع: قرن الازدهار والنضج، وابن حزم والغزالي عاشا في القرن الخامس، ومثل الأخير منها نقطة النهاية لعصر العطاء العلمي الرفيع، فكلهم عاشوا في عصر الإنتاج العلمي والفكري، وسيطرة سلطان العقل المبتكر، وديناميكية الفكر اليقظ.

ولن يكون الطابع المسيطر على الأجيال التي تلتهم غير التجميع والاكتفاء بها أورث الأوائل: جمعه وتدوينه واختصاره وشرحه، على أن أصحاب الموسوعات من بينهم لا يعدمون نظرات ثاقبة أحيانا، وهم من ضربنا عليهم مثالا بابن خلدون والتهانوي اللذين صنفناهما في المنزع التكويني.

ونكتفي منهما بالوقوف مع الأول: ابن خلدون لنرى كيف تطورت هذه النظرة بعد جيل الغزالي الذي دمج الفلسفة في الشريعة أي في عصر جزر الثقافة العربية.

يصنف ابن خلدون العلوم إلى عقلية ونقلية:

- النقلية: يأخذها الناس أساسا عن واضع الشرع، ويقتصر عمل العقل فيها على رد الفروع إلى الأصول، وهي:

- علوم القرءان
- الحديث
- أصول الفقه
- الكلام
- التصوف
- تفسير الرؤيا
- علم اللسان الذي هو تمهيد لهذه كلها.

أما العقلية، وهي من صنع العقل الإنساني فهي:

- المنطق
- الطبيعيات
- الإلهيات
- التعاليم

فابن خلدون يبدأ مدونته بالعلوم النقلية التي يختمها بعلوم اللسان، وقد يكون مادفعه إلى تأخيرها -بالرغم من أنه يوضح أنه لابد في كل علم من علم اللسان، إذ لا يمكن فهم علم بدونه- أن العلوم النقلية الأخرى غايات واللسان آلة، والغاية أقدم في النفس من الآلة.

أما العلوم العقلية فقد فصلها عنها، على سنة الخوارزمي، بل والغزالي وغيرهما، على أن الخصوصية في منظار ابن خلدون تتجلى في ذلك الربط الذي ربط بين العلوم والصنائع، حيث أكد على تولد العلوم من الصنائع والعكس.

أكد هذا في الفصل الذي ختم به باب الصنائع، وفي المقدمة التي افتتح بها باب اعلوم حيث ألح على جدلية هذا التوالد كما ألح عليه قبله الغزالي في كتاب التفكر. وهذا الاحتكاك والتوالد لا معنى له دون اللغة المضبوطة المقننة. ولعل هذا التصور هو ما بنى عليه ابن خلدون مقدمته في علم العمران ككل: حيوان ناطق متميز بهذا النطق، يتعامل مع الطبيعة تعاملا أداته الرئيسية اللغة التي بها يتواصل مع غيره وبها يجرد المفاهيم، ويفكر وتنجر عن هذا التعامل بنية ثقافية تتكون من خبرات عملية ومفاهيم محمولة في اللغة، قابلة للتداول بين الأفراد، وكلما جرى الاحتكاك بين اللغة والفكر والخبرة العلمية عبر تعامل هذا الكائن المتميز مع الطبيعة، تتوالد الثقافة ويترسخ العمران البشري في مؤسساته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية أي الدولة والمصر والصناعة والعلم. كل هذا رنما يتم بفضل المؤسسة اللغوية التي كان الإنسان بها حيوانا متميزا، فتعامل مع الطبيعة تعاملا متميزا، فأنشأ اجتماعا وثقافة فكان إنسانا، إذ اللغة هي التي تستحضر له تجارب غيره وتذكره بتجاربه، وبها يوازن بين التجارب، ويقارن، ويفكر فيولد معارف غير متناهية، إذ كلما ازداد رأس المال زاد الربح.

والنتيجة من كل هذه التصانيف هي تجذر المبحث اللغوي ورسوخه في في المباحث العلمية عند العرب في نوافذ كبرى هي:

- أن العلوم العربية بما فيها المعارف التي كانت عند

العرب قبل الإسلام هي علوم لسانية=، وهذا ما جعل معجزة النبي صلى الله عليه وسلم لغوية.. أما العلوم الإسلامية أي التي مصدرها الإسلام، فإنها تنطلق من نص القرءان، وهو نص لغوي وبالتالي، فهي علوم نص تدور بزكملها بين قطبي الدال والمدلول، سواء منها المعارف التي تعتمد الاستقراء التام: علوم القرآن والحديث أو العلوم التي تعتمد الاستقراء الناقص: أصول الفقه، علم الكلام.. ولذا فليس من الغريب أن نجد هذه المعارف ممتزجة بالمعارف اللغوية المناظرة؛ أو أن نجد بالخصوص النحو، وأصول الفقه، وعلم الكلام منذ نشأتها في جدلية أخذ وعطاء لا تكل ولا تهدأ.

– إن الارتباط نفسه نجده بين المعارف القياسية العقلية، في العلوم العقلية وبين علم اللسان، فإذا النحو قانون اللفظ، وإذا المنطق قانون المعنى، وإذا مباحث المنطق تستحيل –أو تكاد– إلى مباحث لغوية نحوية؛ التصورات والتصديقات، وإذا بالأداة المنهجية هي هي: القياس، والغاية هي هي: الفهم والإفهام والصحيحان وكما اتهم الأصوليون بتحويل مباحثهم إلي مباحث لغوية مبالغ فيها –بحيث يقحمون– هذه الصلة الوثيقة بين منطق العقل ومنطق اللغة هي التي جعلت بعضهم يبحث هذه الصلة من منظور تكويني، فيعتبر أن منطق اللغة الخطبي أصل المنطق الصوري، أي أن القياس الخطبي أصل البرهان المنطقي، وأن الشجرة مهما تفرعت أغصانها فإن الجذع يظل واحد.. والعلوم والصنائع إنما أمكن توليدها عند الانسان بفضل جهازه اللساني.

ثبت المصادر:

– ابن حزم (محمد أحمد): رسالة مراتب العلوم، مكتبة الخانجي، مصر د.ت

– ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، الدار التونسية للنشر 1983

– ابن النديم (محمد): الفهرست، افلوبيل 1942

– إخوان الصفاء: رسائل إخوان الصفاء، دار صادر لبنان 1957

– التهانوي (محمد أعلي): كشاف مصطلحات الفنون، كلكتا– الهند 1862

– التوحيدي (أبو حيان): المقابسات، ن.مصورة،خط ميراز الشيرازي 1306 هـ

الخوارزمي الكاتب (محمد بن عبد الله): مفاتيح العلوم، عثمان خليل–مصر 1930

– الغزالي (أبو حامد): إحياء علوم الدين، لجنة التراث–مصر 1360 هـ

– الفارابي (أبو نصر): إحصاء العلوم، مطبعة الأنجلو– مصر 1963

– الفارابي (أبو نصر): كتاب الحروف، بيروت 1970 (وطبعت دار المناهل ببيروت أعمال الفارابي الفلسفية الكاملة محققة 1997).

المسرح الموريتاني : واقـــــع وآفـــــاق

أحمد ولد الشيباني ولد منيرة

مخرج مسرحي/ وزارة الثقافة

ليس هناك تاريخ محدد يمكننا اعتماده لبدايات الحركة المسرحية في بلادنا، لكنه من الراجح ان البداية الاولي كانت مع تجمع من الشباب الموريتاني. يقول عنه الدكتور محمد الحسن ولد محمد المصطفي في مقال له حول المسرح الموريتاني: «ان المتفرج الموريتاني عرف الخشبة لأول مرة سنة 56 - 1957 علي يد هذا التجمع»(1) ورغم ان المدرسة التي اذكت روح المعرفة وانارت البصيرة لابناء منطقتنا لم تحمل معها هذا اللون من الفن والادب الذي لم يكن مألوفا لدى شعبنا، فإنه كانت هناك محاولات طبعتها الارتجالية والبساطة وذلك علي مستوى بعض المدارس الابتدائية في كل من كيهيدي وانواذيبو وكان ذلك سنة 1957 (2) حسب المخرج الفلسطيني الذي عمل في وزارة الثقافة الاستاذ خليل محمد طافش.

ومع نسائم الاستقلال بدأ الشباب في تكوين تجمعات لهم علي شكل اندية ثقافية، اجتماعية، ورياضية تمارس جل الفنون الجديدة الوافدة الي بلادنا ككرة القدم والمسرح. واعتذر هنا عن عدم ذكرى لعدد واسماء هذه الاندية وذلك لعدم وجود ارشيف حافظ لهذه المحاولات.

مع ان فرقة «الكيكوطية» تعتبر أول فرقة مسرحية سجل التاريخ الموريتاني اسمها. وقد تكونت هذه الفرقة حسب المصادر الشفهية في اوائل سنة 1958(3) وقدمت عروضا مسرحية شبه متكاملة، مع افتقارها

لضروريات العروض المسرحية، وقد امتازت هذه الفرقة بضمها عناصر نسائية وبتجوالها داخل البلاد، كما امتازت باعتمادها الكوميديا كاطار لاعمالها المسرحية.

كانت هذه الفرقة تقدم عروضها ليلا في الهواء الطلق دونما مكبرات صوت ولامكروفونات ودونما انارة ولا خشبة. وقد ركزت «الكيكوطية» في اعمالها علي النقد الاجتماعي والسياسي، كما لم تجد حرجا في اظهار اعلي الشخصيات السياسية الوطنية آنذاك في صورة كوميدية ناقدة.

قدمت هذه الفرقة اثناء وجودها مجموعة من الاسكتشات والتمثيليات القصيرة ذات الطابع الاجتماعي. وماتجدر الاشارة اليه هنا هو ان هذه الفرقة من خلال تجربتها المتواضعة ساعدت في غرس عضو غريب داخل جسم مجتمعنا، ليبدأ هذا العضو بالنمو رويدا رويدا تتجاذبه الظروف وتتمايل به الرياح بين مد وجزر، شأنه في ذلك شأن اي نشاط جديد. ظلت «الكيكوطية» تمارس النشاط المسرحي، فقدمت ماكان بوسعها من الاعمال الي ان تحولت في اواخر الستينات الي فرقة مناسبات تشارك في الاحتفالات الرسمية والاعياد الوطنية. فلم يقدر الله لها النجاح وبدأ اعضاؤها في البحث عن طريق آخر لهم.

وفي الوقت الذي كانت «الكيكوطية» تواصل عطاءها الفني كانت ثمة مجموعات شبابية اخرى تؤمن بضرورة ايجاد هذا الفن وتتطلع إلى خلقه يقول خليل محمد طافش: « ظل الشباب في موريتانيا وخصوصا المثقف أو نصف المثقف يتطلع إلى خلق هذا الفن، وظل يرى ضرورة ايجاده وذلك من خلال احساسه بمدى اهمية هذا اللون من الفن، ومدى تأثيره في توعية وتثقيف الجماهير وتوجهها توجيها صحيحا... فاندفع في محاولات لتفجير طاقاته وتطوير اساليبه الادبية والفنية ليعالج بها مشاكله الاجتماعية وكذلك لتسجيل تاريخ مجتمعه» (4).

ولم يكن انواكشوط المعقل الوحيد لهذه النشاطات المسرحية بل امتدت لتشمل جل الولايات مثل انواذيبْ، كيهيدي، واطار، كما أصبحت لدى معظم المدن فرق مسرحية حاولت محاكاة الفعل الاجتماعي والسياسي وتجسيده من غير زيف ولاتحريف. لكن اكثر هذه الفرق اندثر لعدم، اوضعف المردودية وانعدام التمويل، الا ان المسرح المدرسي ظل متواصلا وان كان بمعدل تمثيلية واحدة مع اختتام كل سنة دراسية.

وتجدر الاشارة هنا إلى أن بعض الاعمال المسرحية آنذاك استطاعات تحريك الحس الوطني بما تحدثت عنه من معارك قادها ابناء هذا الوطن ضد المستعمر مسجلة اسماء ابطال مقاومتنا الوطنية باحرف خالدة. وكمثال لهذه الاعمال اذكر على سبيل المثال "احمد ولد عيده" و"الشيخ ماء العينين" وقد قدمت هذه الاعمال لأول مرة سنة 1968(5).

وقد طبع النشاط المدرسي في هذه الحقبة من الزمن

بالارتجالية، كما امتازت التجارب التي ظهرت من حين لآخر بعدم الاستمرارية وقد يكون ذلك راجعا إلى انعدام التثقيف والتخصص وغياب النص. كما انحصر النشاط في الاعمال التي قدمتها حركة الشباب الموريتاني وتلك التي قدمت فرقة "الكيكوطية" هذا بالاضافة إلى المسرح المدرسي الذي كان يومها بمثابة الشعلة المسرحية المركزية.

بعد هذه العجالة اعود قليلا لاذكر بانه بعد قيام الدولة الموريتانية وتشكل الادارات والمؤسسات وغير ذلك من ضرورات الدولة الحديثة، ورغم وجود حقائب وزارية تهتم بتطلعات الشباب وطموحاتهم كوزارة الثقافة التي عهد اليها آنذاك بمسؤلية استنبات كل الوان الثقافة والفنون بما في ذلك المسرح، إلا أن جهودها لم تتمحض آن ذاك عن شيئ جاد ومستمرفي هذا المجال رغم تشجيعها للمبادرات الشبابية ورغم انها استدعت رسميا المخرج القلسطيني خليل محمد طافش للعمل فيها بغية الاستفادة من خبرته المسرحية في تكوين اسس للمسرح في بلادنا.

وبعد سنتين من العمل في موريتانيا قدم المخرج الفلسطيني خليل محمد طافش تقريرا مفصلا عن رؤية مرفوقة بتصور متكامل لكيفية انشاء مسرح وطني موريتاني، وكان ذلك في الثامن عشر من شهر مارس سنة 1977.

إلا أن ظروفا عارضة حالت دون تنفيذ هذا المشروع، وهكذا ظلت أمواج المد والجزر تتقاذف المسرح في بلادنا حتي يومنا هذا.

وأغلب ظني أنها كانت، نتيجة ظروف داخلية من جهة، ومن الجهة الأخرى فقد كان التكوين الثقافي والاجتماعي للإنسان العربي عموما لايزال حديث عهد بكثير من الفنون، وخاصة فن المسرح، الذي لا يزال فاقدا هويته في معظم بلدان وطننا العربي الكبير، سيما في مجتمع كمجتمعنا لم يحالفه الحظ في التعرف على هذا الفن إلا في نهاية الخمسينات من القرن العشرين.

هوامش:

1 ـ محمد الحسن ولد محمد المصطفى: نظرة في المسرح الموريتاني، مجموعة مقالات نشرتها جريدة الشعب الاعداد: 5978و5983و5985 لعام 1997

2 ـ خليل محمد طافش: مقالة بعنوان: مدخل إلى دراسة المسرح الموريتاني. إرشيف ادارة الثقافة 1981

3 ـ الكاتب المسرحي: محمد فال ولد عبد الرحمن

4 ـ خليل محمد طافش . مرجع سابق

5 ـ محمد الحسن ولد محمد المصطفى ، مرجع سابق

استنساخ الأنواع

عبد الله بن محمد أحمد

مدرس علوم طبيعية

استنساخ الأنواع تكاثر لا جنسي (يحدث دون إخصاب) يمكن من الحصول على أفراد ذوي مواصفات مطابقة وراثيا لمواصفات الأفراد الأصليين.

وتتلخص عملية الاستنساخ في اختيار نواة ذات صفات وراثية وزرعها في خلية أخرى منزوعة النواة ثم تحفيز الخلية الناتجة عن الانقسام لتعطي فردا جديدا. وقد يتم تحفيز الخلية الأصلية مباشرة على الانقسام دون حاجة إلى خلية أخرى حاضنة.

تؤدي هذه الطريقة إلى إنتاج نسخ من الفرد الأصلي دون حاجة إلى مشاركة فرد آخر أي دون اجتماع الجنسين المذكر والمؤنث.

وتمكن الباحث إيان ويلموت الاسكتلندي موخرا من إجراء تجارب ناجحة في هذا المجال أنجبت النعجة المشهورة "دوللي" ويمكن تلخيص تجارب ويلموت في الخطوات التالية:

1 – اختيار خلية لبنية لشاة عمرها 6 سنوات.

2 – تنمية هذه الخلية على وسط مناسب.

3 – العمل على توقيف انقسام هذه الخلية لإدخالها في كمون فيزيولوجي.

4 – سحب النواة واستبدالها بنواة بويضة ذات مواصفات مرغوبة.

5 – إخراج الخلية من الكمون الفيزيولوجي عن طريق شرارة كهربائية لتبدأ عملية الانقسام وتكوين الفرد.

أثار ما تم التوصل إليه على يد ويلمون ضجة عالمية كبيرة وتباينت الآراء حتى بين العلماء أنفسهم حول إمكانية استنساخ البشر بنفس الطريقة، وما يترتب على

ذلك من مخاطر.

إن أي اكتشاف علمي قد يكون وبالا إن لم يتم توجيهه كاستخدام الطاقة الذرية في إنتاج قنابل تدمر تدميرا شاملا كما حدث في اليابان في الحرب العالمية الثانية، ولا تزال آثار ذلك مستمرة كولادة أفراد معوقين عقليا وجسميا. فماذا يمكن تصوره لو تعلق الأمر باستنساخ البشر؟

إن عملية استنساخ البشر إن نجحت ستؤدي إلى ولادة مجتمع جديد يغيب فيه مفهوم الأسرة أو أحد عناصرها كالأب أو الأم (يستغنى فيه عن أحد الجنسين) وفي ذلك خروج عن الفطرة التي خلق عليها البشر، الأمر الذي يرفضه الجميع ويحرم من الناحية الشرعية، إلا إذا كان للعلاج (باستنساخ أعضاء بشرية لزراعتها لمرضى) حسب رأي بعض العلماء.

سيتحول الإنسان في ذلك المجتمع إلى دمية تنتج بالمعامل حسب مواصفات معينة وتستبدل أعضاؤها ربما حسب المزاج.

وقد تستغل العملية بدافع التطلع أو التمتع أو كسب الربح...

ومن الناحية الوراثية فإن التكاثر بهذه الطريقة سيؤدي إلى توقف عملية التنوع التي تتطلب التهجين بين سلالات مختلفة.

فهل بإمكاننا تصور الضوابط الأخلاقية ونوعية الممارسات في مثل هذا المجتمع؟

وهل بإمكاننا التحكم في هذه المسألة بعد فتح المجال لتجربتها؟

إن هذه الأسئلة وغيرها لتتطلب منا وضع حد لمثل هذه التجارب، وقد يكون ذلك من خلال ندوة أو ندوات عالمية.

نبات السدر Zizyphus واستخدامه في موريتانيا

يسمى هذا النبات محليا ب: أسدر، ومن أنواعه كذلك «الباوية» و«كليلة» و«متهر» و«جابي»، وهو ينتمي إلى العنابيات والنبقيات.

توجد عدة أنواع من السدر في موريتانيا منها:

- Zizyphus mauritiana
- Zizyphus mucronata
- Zizyphus lotus
- Zizyphus spinacriste

وأكثر هذه الأنواع انتشارا هو النوع Zizyphus mauritiana ولذلك سنقتصر عليه، ومن مميزاته:

- ينتشر هذا النوع في المناطق الساحلية والساحلية السودانية في التربة الرملية والطينية والصخرية على ضفاف الأنهار والأودية وفي البراري.

– يتواجد على صورة شجيرات متوسطة الحجم أو أشجار كبيرة.

– له أغصان متفرعة البعض يغطي منها وبر دقيق حريري.

–أوراقه بيضية تقريبا لها أذينات شوكية.

– له أزهار مصفرة (اكتوبر – يناير).

– ثماره نووية طرية خضراء قبل النضج ومحمرة جافة حلوة بعد النضج بداخلها بذور كروية صلبة.

ولنبات «السدر» استخدامات كثيرة يمكن إيجازها في النقاط التالية:

1 – استخدامات غذائية:

– يتغذى الإنسان على الثمار ويحضر منها وجبات خاصة كوجبة «البسيسه» التي تحضر بإضافة اللبن إلى مسحوق هذه الثمار.

– تشكل الأوراق والأغصان الغضة الصغيرة والثمار علفا جيدا للحيوان.

2 – استخدامات طبية:

– تستخدم الأوراق لعلاج الإسهال وآلام البطن بأكلها أو بتحضير شراب منها.

– تستخدم الثمار المطحونة كمسهل لعلاج الإمساك وطرد الديدان الطفيلية.

– تستخدم الأوراق لعلاج لسعات العقارب وعلاج البلهارسيا وبعض الأمراض الجنسية.

3 – استخدامات مختلفة:

– يستخدم حطب هذا النبات كمصدر للطاقة (الطهي – التدفئة)

– يستخدم حطب هذا النبات لتحضير حظائر للحيوانات ولصناعة بعض الأدوات الخشبية.

– تستخدم قشور السيقان في دباغة الحلود.

– تستخدم النساء الأوراق الخضراء المهروسة (لخواظ) لتصفيف الشعر وإعداد الضفائر.

– تستخدم الأوراق كمادة قابضة لتنظيف وتحنيط الموتى.

– يستخدم النبات لتثبيت الرمال.

من خلال ما سبق نتبين أهمية نبات السدر في موريتانيا فهو يستخدم في جميع المجالات الضرورية كالغذاء والدواء والزينة وصناعة الأدوات وتثبيت الرمال التي تهدد الكثير من المشاريع الهامة وتكتسح أكثرية مساحة البلاد.. وخاصة طريق الأمل الذي يعتبر الشريان الرئيسي الذي لا غنى عنه.

وبذلك يمكن الاعتماد على هذا النبات المحلي ليساهم في حل بعض المشاكل البيئية الحادة في بلدنا.

ويمكن أن يتم ذلك بإنشاء مركز خاص لتربية هذا النبات وتوزيعه، ولا أعتقد أن العملية تكلف كثيرا إذا ما قورنت بما ينفق على أنواع ع.م.أ أخرى أقل جدوائية.

أثر الثورة المعلوماتية الجديدة في الإتصال الجماهيري والمجتمع

محمد ولد محمد عالي

باحث موريتاني

I – مدخل:

الحاجة إلى الاتصال بالآخرين تكاد تكون غريزة بشرية عند الفرد والمجتمع ويبدو أن المجتمع الانساني بني على الاتصال كأهم دعائمه ومرتكزاته. فالإنسان بحاجة إلى نقل رغباته ومعرفته وعواطفه إلى الآخرين، ليس فقط من أجل المحافظة على توازنه النفسي والاجتماعي، ولكن من أجل بقائه كذلك فردا في مجتمعه (1) ولعل هذا ما جعل النفي والسجن (2) والنبذ (من القبيلة) أهم عقوبات ابتكرها المجتمع ضد الخارجين على القانون والنظام، لأنها تحرم الإنسان من الاتصال بمجتمعه، أو بأفراد منه يحبهم ويحبونه.

والإنسان يستخدم لعملية اتصاله بالآخرين وسائل، هي محل تطور دائب، فكلما اتسعت دائرة اتصال الفرد والمجتمع (من دائرة الأسرة إلى دائرة القبيلة إلى الدولة إلى العالم مثلا) تطورت بالضرورة وسائل الاتصال المستخدمة، ففي المجتمع البدائي كانت وسائل الاتصال شفوية لتتطور بعد آلاف السنين، إن لم نقل ملايين السنين، إلى الكتابة بعد اكتشاف الحديد، ثم اتسعت دائرة الاتصال وتشعبت فظهرت مطبعة جوتنبيرغ في خضم عصر النهضة وبوادر اكتشاف العالم الجديد، ولم تكن الثورة الصناعية لتنتشر لولا تلفون كراهام بل (1876) وتلغراف ماركون اللاسلكي (1890) ثم اتسعت دائرة الاتصال فكان لابد من ظهور الإذاعة (1920) والتلفزيون 1955. ولكي تتمكن التلفزيون من تجاوز الحدود الوطنية، كان لابد من ظهور القمر الصناعي 1957 ، ولا يمكن للقمر الصناعي

أن يعمل بغير الكومبيوتر لذلك تزامن ظهور القمر الصناعي مع ظهور التلفزيون والكومبيوتر.

وهكذا توسعت دائرة الاتصال البشري من القبيلة لتشمل جميع سكان الأرض، فظهر تلفزيون القمر الصناعي والثورة المعلوماتية الرقمية وباتساع دائرة الاتصال وتطور وسائله، تطورت كذلك مضامينه ووظائفه فلم يعد الانسان مكتفيا بدور الاستقبال السلبي للصحف والإذاعة والتلفزيون، بل صار يريد المشاركة في عملية الاتصال لذلك ظهرت -أو هي في طريقها إلى ذلك- وسائل الاتصال المتعددة الوظائف.

فما هي وظائف الاتصال التقليدية، وكيف تأثرت بالثورة التقنية الجديدة وما أثر ذلك كله في المجتمع؟

II - مفهوم الاتصال الجماهيري ووظائفه

1 - مفهومه

يمكن تعريف الاتصال الجماهيري بأنه رسالة موجهة إلى جمهور كبير نسبيا غير متجانس ومجهول الاسم (3).

ومن هذا التعريف تتجلى خصائص الاتصال الجماهيري بما يلي:

- رسالة: وهي رموز تحمل دلالات يوجهها مرسل إلى مستقبل وحين تكون هذه الرسالة غير مفهومة، فإن عملية الاتصال لا تنشأ أصلا، ولهذا فالطلاسم التي لا تحمل معنى والرموز التي لا يفهمها المستقبل لا تعتبر رسالة.

وقد انتبه جين بياجي، عالم النفس السويسري المعروف، إلى أن مشكلة الطفل لا تكمن في كونه غير قادر على إنتاج لغة طبيعية، بل لأنه يتحرى ويكرر المحاولات حتى يكتشف اللغة التي يتحدث بها أبواه ويفهمانها (4) فبياجي يعتبر الطفل وأبويه والبئة الخارجية نظاما متكاملا. فإذا فشل الطفل في إنتاج رسالة يفهمها أبواه فإن الأصوات التي ينتج ستظل بالنسبة لوالديه ألغازا محيرة أو هذيا. فالرسالة لكي تكون مفهومة لابد أن يكون في وسع المتلقي فك رموزها وإعادة تشكيلها، وإلا فإننا لا يمكن أن نتحدث عن الاتصال.

- جمهور كبير

فالرسالة لابد أن توجه إلى جمهور، أي مجموعة من الناس، وإلا فإنها لا تعد رسالة جماهيرية، ولهذا نستبعد الرسائل الموجهة للأفراد، وهذا الجمهور لابد أن يكون كبير الحجم، وكبر الحجم هنا مسألة نسبية، لا يمكن تحديدها بالأرقام، فما يحدد حجم الجمهور المطلوب هو سياق الاتصال والظروف المحيطة به. فالجمهور الذي يستمع للتلفزيون قد يعد بالملايين، أما الجمهور المؤلف من خمسة آلاف شخص والذي يستمع لخطاب يلقيه

زعيم حزب سياسي، فإنه أصغر نسبيا ومع ذلك فإن هذا الزعيم السياسي لا يستطيع التفاعل مع أفراد هذا الجمهور وجها لوجه، ولهذا فالاتصال هنا جماهيري فالمهم، كما في هذه الحالة أن يكون الجمهور كبيرا بالقدر الذي لا يسمح بأي اتصال شخصي تفاعلي بين صاحب الرسالة والجمهور، وإلا تحول إلى اتصال شخصي (5).

– غير متجانس

فلكي يكون الجمهور جزء من الاتصال الجماهيري، يجب أن يكون مختلف المشارب والنزعات الفكرية والاجتماعية والسياسية، ولنعد إلى مثالنا السابق حول زعيم الحزب السياسي الذي يخطب في جمهور من خمسة آلاف شخص، لنقول إنه إذا كان جميع أفراد هذا الجمهور ينتمون لحزبه، فإن الاتصال يكون شخصيا، لا جماهيريا، لأنه لا يكفي عدم التفاعل الشخصي، فلابد أن يكون الجمهور مختلف المشارب أيضا.

– مجهولية الإسم

فإذا كان المرسل يعرف جمهوره معرفة شخصية أو يعرف أسماء أفراده، فإن العملية الاتصالية تكون شخصية، مهما كان حجم الجمهور واختلاف مشاربه.

وبعد هذا التحديد لمفهوم الاتصال الجماهيري، يتبين لنا أن الاتصال بالهاتف والفاكس والبريد الألكتروني E-mail وخدمات الانترنيت كلها تدخل في نطاق الاتصال الشخصي التفاعلي، لكن هذه التقنيات وخاصة الكومبيوتر والخطوط الهاتفية ستقودنا إلى عصر وسائل الاتصال المتعددة الظائف كما سنرى لاحقا.

ونشير هنا إلى أنه لا توجد متلازمة بين استخدام التلفزيون والإذاعة والاتصال الجماهيري. فالتلفزيون قد يستخدم للاتصال الشخصي، كما في التلفزيون المغلق المستخدم لأغراض تعليمية.. الخ.

2 – وظائف الاتصال الجماهيري

يحدد هارولد لاسويل، أحد رواد هذا المجال، وظائف الاتصال الجماهيري بما يلي: (6)

– رصد البئة ومراقبتها.

ويعني ذلك تتبع الأحداث الجارية حولنا وجمع المعلومات المتعلقة بها وتوزيعها على الجمهور، أي الوظيفة الإخبارية.

– رصد العلاقة المتبادلة ورد الفعل نحو هذه الأحداث.

فالإنسان بالإضافة إلى حاجته في الحصول على الأخبار، فإنه كذلك بحاجة إلي تفسير هذه الأخبار والتعليق عليها من طرف أناس يدركون أسبابها والظروف التي تكتنفها ونتائجها المحتملة.. الخ.

وهذا ما يطلق عليه الوظيفة التوجيهية، وقد ثبت من خلال أبحاث عدة أن الناس بقدر حاجتهم إلى الأخبار فإنهم كذلك يتطلعون إلى ما وراءها عن طريق التحليل

والتفسير.

- بث التراث الاجتماعي

وهنا يربط الاتصال الجماهيري ماضي الأمة بحاضرها، ويدخل من هذا النطاق الوظيفة التعليمية.

ويطبق الخبراء وظيفتي الترفيه والإعلان، فالترفيه يستهدف إنساء المرء همومه ومشاغله التي تضغط عليه يوميا، وذلك بتوجيه رسائل خفيفة إليه، لا تحفزه إلى التفكير العقلاني المنظم، وإنما تجعله ينسى وقته وينسى التفكير في العالم من حوله.

أما الإعلان، وهو ترويج السلع والخدمات عن طريق بثها بأساليب خاصة ومؤثرة، بغية حثه على شراء هذه السلع والخدمات، وهذه الوظيفة ملازمة حتما لتطور الصناعة الحديثة والتنافس الحاد والتسابق المحموم للسيطرة على المستهلك. وهذه الوظيفة ذات أثر مزدوج، فهي من جهة تمثل المورد الاقتصادي الرئيسي لوسائل الإعلام، ولهذا يرى كثير من الباحثين عدم إدراجها في وظائف الاتصال، ومن جهة ثانية يتوخى الإعلان إغراء المستهلك وحفزه بجميع الطرق المكنة على شراء السلع المعلن عنها. وينتج من الوظيفتين السابقتين نتيجة أو وظيفة أخرى هي أن وسائل الإعلام، وهي تدرك أن المعلن يفضل الإعلان في الوسائل الأوسع تغطية والأقوى في الإقناع تلجأ إلى أساليب غير مقبولة للتأثير في قرار المستهلك، فهي غالبا تروج سلعا ضارة لصحة الإنسان، بل أكثر من ذلك، فهي لكي تصل إلى جمهور عريض من المستهلكين للسلع تسعى أحيانا إلى إشباع رغبات الجمهور ببث مضامين رديئة منحطة حتى لا يتحول الجمهور عنها، ومن ثم المعلن إلى وسيلة أخرى.

كل هذه الأمور جعلت بعض الخبراء لا يحبذون إدراج الإعلان في وظائف الاتصال الجماهيري، لما ينطوي عليه من جوانب سلبية، والحقيقة أن الموقف من الوظيفة الإعلانية جاء نتيجة للبس الذي يقع فيه البعض حيث لا يفرقون بين الأهداف والوظائف (أو النتائج) (7)، من جهة، وكذلك النظرة السلبية نحو الإعلان.

صحيح أن الإعلان ينطوي على مخاطر، ولكنه ليس دائما سلبيا فكثير من الإعلانات يرشد المستهلك إلى كيفية حصوله على سلعة أو خدمة، هو بحاجة إليها ويبحث عنها، هذا فضلا عن الإعلانات الحكومية والخيرية.

وعلى افتراض أن الوظائف السابقة (مع بعض التحفظ حول الاعلان) مرغوب فيها، فعندئذ لا مناص من طرح إشكالين في هذا السياق: أن وسائل الاتصال قد تخفف في أداء وظيفتها المرسومة لها؛ وثانيا أنها قد تحقق نتائج عكسية غير مرغوب فيها، والحقيقة أن هذين الإشكالين يعودان إلي مصدر واحد، وهو الاعتقاد السائد لدى كثير منا بأن وسائل الاتصال الجماهيري تحدث آثارها بشكل مباشر في الجمهور، أى ما إن يتلقى الجمهور رسالتها حتى يتأثر بمضمونها بشكل تلقائي وسريع.

ولاشك أن هذا الاعتقاد خاطئ جدا، وهو ناتج عن عجزنا عن البحث في العلاقات بدلا من الأشياء، أي

أننا نرى العالم من خلال ثنائيات: السبب والنتيجة، الإنسان والطبيعة، الروح والجسم... الخ، لا من خلال نظم شاملة أكثر تعقيدا كما يقول دانيل بيل، مفسرا ذلك بتأثرنا بالمنطق الأرسطوطاليسي الصوري، بدلا من المنطق الجدلي الحديث (8).

والدراسات التي أجريت في هذا المجال تثبت أن جمهور وسائل الاتصال الجماهيري ليس متلقيا سلبيا يتأثر مباشرة بالرسائل الموجهة إليه، بل يواجهها على المستويين النفسي والاجتماعي. ففي المستوى النفسي لاحظ لازرسفيلد منذ 1948 (9) أن الأفراد يتعرضون اختياريا للرسائل التي توافق أمزجتهم وميولهم، ويضربون عرض الحائط بتلك التي تهاجم معتقداتهم. وهم كذلك يفسرون مضامين الرسالة ويؤولونها وفقا لميولهم ورغباتهم. ثم إنهم لا يتذكرون إلا المضامين التي تنسجم وآراءهم واتجاهاتهم (10).

وهذا ما يعرف بالعمليات الانتقائية ولهذا فإنه حتى إذا تعرض الفرد للرسالة، فلا يعني ذلك أنه تأثر بها. فهو يفسرها ويؤولها وفقا لاتجاهاته ومواقفه الفكرية والسياسية (11).

وعلى المستوى السوسيولوجي لجمهور وسائل الاتصال، نجد أن الجمهور يتميز بهيكلة أو تنظيم خاص. فقد تبين من خلال الدراسات التي أجراها لازر سفيلد وزملاؤه أن الناس لا يتأثرون مباشرة بالوسيلة الإعلامية، وإنما يتأثرون بأفراد (قادة رأي) من محيطهم الأسري أو من جيرانهم. فهؤلاء القادة يتبنون مضمون الرسالة، وغالبا ما يعيدون تشكله (12) وصياغته ثم يبثونه في الأشخاص الذين تربطهم بهم علاقات خاصة، ويعرف هذا النوع من التأثير بالتأثير على مرحلتين The twostep flow of communication. ومعنى ذلك أن الخطاب الإعلامي يستمد قوته من الاتصال الشخصي ويغير هذا الاتصال الشخصي يظل محدود التأثير (13).

وقد يكون التأثير عبر مراحل عندما تتسع دوائر الجمهور، فينساب التأثير عبر شبكة من العلاقات الهرمية على رأسها قادة الرأي وفي وسطها قادة من الدرجة الثانية أما في قاعدتها فيوجد بقية الجمهور (14).

أما السبب الذي جعل الاتصال الشخصي أقوى من الاتصال الجماهيري في تأثيره في المتلقي فيعود إلى مجموعة من المزايا متوفرة في الاتصال المباشر وغائبة في الاتصال الجماهيري، ويمكن إجمالها في خمسة عوامل:

1 - التلقائية والبراءة (15) فالمتصل المباشر يستطيع أن يطلب مايريد من المتلقي بتلقائية وبراءة، متجاوزا مضمون رسالته. ففي التلفزيون والإذاعة مثلا، يصعب أو يستحيل أن تجد رسالة لأحد المترشحين تقول: «أنا أعرف أنكم غير مقتنعين ببرنامجي الانتخابي، ولكم الحق في ذلك، ولكن أطلب منكم لما يربطني بكم من علاقات تقدير ومحبة أن تصوتوا لي» أما في الاتصال الشخصي فإن هذا النوع من الرسائل مألوف، حيث

تدخل العلاقات الشخصية ويتمكن صاحب الرسالة من الوصول إلى هدفه (التصويت له) بغير حاجة إلى إقناع الناس ببرنامجه وسياساته (16).

2 . الرغبة في الاتفاق مع من نعرف

فالإنسان بطبعه يشعر بالراحة والسرور حينما يكون متفقا مع أصدقائه في الرأي، ولهذا يسعى جهد مستطاعه إلى أن يكون منسجما معهم، حتى لا يعرض نفسه للشعور بعدم الرضى والطمأنينة (17).

3 - المرونة والقدرة على التكيف

فالمتصل المباشر يستطيع أن يغير مضمون رسالته ويوجهه وفقا لما تمليه عليه متطلبات الموقف وظروف العملية الاتصالية، وهذا غير متاح للإتصال الجماهيري.

4 - التماثل بين قادة الرأي وجماهيريهم، فهم كما قلنا آنفا ينتمون إلى نفس المحيط الاجتماعي وتوجد بينهم مصالح كثيرة.

5 - التعاطف مع قادة الرأي، فالناس في الغالب يتعاطفون مع من يحبون ويؤيدون.

ويمكن أن نستنتج مما سبق، أن تأثير وسائل الاتصال الجماهيري لا يستمد نفاذه وقوته فحسب من قادة الرأي، ولكن هؤلاء القادة يمكنهم إعاقة تأثيره وانتشار مضمونه. وهنا لا نريد القول بأن وسائل الاتصال الجماهيري لا تأثير لها إطلاقا، فكلما نود إثارته هو أن الجمهور ليس مستقبلا سلبيا يستقبل ويتأثر مباشرة وبشكل آلي، ولكن ما يحدث هو أن تأثيره المباشر محدود، غير أن التصال الشخصي يُفَعّله ويُنفذه.

ويقدر تأثر قادة الرأي بمضمون الرسالة يحقق الاتصال الجماهيري أهدافه، عن طريق التأثير في هذه الدائرة الضيقة التي تستعيد بث مضامينه في دوائر أوسع نطاقا، أي الجمهور العادي.

ولهذا فإن دور الاتصال الجماهيري هو تعزيز الأنماط والعلاقات السائدة في المجتمع، أكثر منه تغييري.

وهذا ما انتبه إليه لازر سفيلد وباحثون آخرون. وهذا الدور التعزيزي لا ينتج فقط عن العمليات النفسية والاجتامعية أي العمليات الانتقائية، المرتبطة بجمهور هذه الوسائل والتي تحدثنا عنها سابقا، ولكنه كذلك ينتج عن محاولات المرسل تكييفه لرسالته لكي تلائم أذواق الجمهور وذلك لكي لا يرفضها على النحو السالف بيانه.

ولكن لابد كذلك من الحديث عن بعض خصائص أجهزة الاتصال الجماهيري والعلاقات القائمة بينها.

3 - بعض خصائص أجهزة الاتصال الجماهيري والعلاقات القائمة بينها

عندما ظهر التلفزيون (1955)، كانت النظرية السائدة آنذاك هي أن كل وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيري (الصحافة المكتوبة، الإذاعة، التلفزيون... الخ) يمكن أن تتخصص في مجال محدد. ولهذا نيط بالصحافة مهمة الإعلام، أي جمع المعلومات المتعلقة بالأحداث الجارية والتعليق عليها وتفسيرها. واختصت الإذاعة في بث البرامج الموسيقية والمنوعات، أما التلفزيون فاكتفى بعرض الأفلام السينمائية في البيت (18).

غير أن هذا التحديد الدقيق لوظائفه. وسائل الاتصال وأدوارها لم يدم طويلا إذ سرعان ما اكتشفت كل وسيلة أنها قادرة على منافسة الوسائل الأخرى في أداء وظائفها فارتادت التلفزيون والإذاعة مجال الإعلام والأخبار ولم تعد الصحافة مكتفية بالوظيفة الإعلامية ولكنها أصبحت هي الأخرى تنهض بدور التسلية والترفيه. لهذا احتدت المنافسة بين وسائل الاتصال المختلفة للفوز بأكبر عدد ممكن من الجمهور. وحاولت كل وسيلة استغلال المزايا المتوفرة لديها لكسب رهان المعركة. واتجه الخبراء نحو البحث في خصائص كل وسيلة ولهذا قيل إن الصحافة تنمي النزعة الفردية لدى الإنسان وتنزع به نحو التفكير المنظم والتجريد. فالقراءة تمكن الإنسان من اكتشاف ذاته وفردانيته (19) في حين أن التلفزيون يحيي روح التضامن الجماعي والقبلي لدى الإنسان (20) أما الإذاعة فإنها تمتاز بعفوية الاستقبال وملاءمتها لوضعيات مختلفة، فهي وسيلة اتصال مرنة، تمكن الإنسان من الاستماع إليها في الوقت الذي يكون فيه مرتبطا بإنجاز عمل آخر (في المكتب أو البيت، أو سياقة السيارة مثلا)

وقيل كذلك إن اختلاف الطبيعة التقنية لهذه الأجهزة أدى إلى اختلاف في طبيعة جمهورها أيضا. غير أن التجارب أثبتت أنه لا يوجد جمهور يكتفي اكتفاء تاما بهذه الوسيلة أو تلك للحصول على المعلومات التي يريد. بل إن من يستخدم إحدى هذه الوسائل يكون أكثر احتمالا لاستخدام الوسائل الأخرى، لتكميل ما حصل عليه من المعلومات (21) وهذا ما يعرف بظاهرة التزاوج بين مختلف الأجهزة ذلك أن الناس لا يبحثون فقط عما هو جديد ولكنهم كذلك يبحثون عن تفسير وتفصيل ما سبق أن حصلوا عليه (22).

ومن هنا يمكن القول إن عجز وسائل الاتصال الجماهيري عن إدراك دينامية العلاقة القائمة بين الجمهور وقادته من جهة، وعجزها كذلك عن فهم الأبعاد الحقيقية، السيكولوجية والسيسيولوجية، لجمهورها وطبيعة العلاقة القائمة بين هذه الوسائل نفسها، كل ذلك يشكل فراغا كبيرا ستتطور بغير شك تقنيات اتصال جديدة لسده وهو ما أصبح واقعا.

ولهذا فالسؤال المطروح ماهو تأثير الثورة المعلوماتية الجديدة في وسائل الاتصال الجماهيري والمجتمع؟

ملاحظة:

الهوامش في الحلقة التالية

الاعلام والتنمية

أ. محمد المختار بن المصطفى

باحث موريتاني

الحديث حول الاعلام والتنمية احد الموضوعات التي دارت في ذهني للكتابة عنها، لا لجدتها ولا لامكانية الاتيان فيها بجديد لأن المجال اشبع دراسة وتحليلا ونقاشا من طرف كفاءات متخصصة عديدة من رجال الاعلام ورجال التنمية ومن منظمات وهيئات تعني بهذا الموضوع، ولكن النسبية والتجدد الدائمين والتغابي في هذا العالم والاختلاف الحضاري والتفاوت في شتى المجالات والاحوال مابين الشعوب والامم والدول اليوم كما هو بالامس، امور تجعل دلالة المصطلحات ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجال والهدف الذي يرمي اليه الكاتب وهو ماشجعنا علي تناول هذا الموضوع مدفوعين بعوامل محلية في موريتانيا اهمها انها تشهد منذ سنوات انفتاحا سياسيا واقتصاديا وحرية في تعاطي الكلمة والفكرة والمعلومة، وهي مع ذلك مازالت تعيش مستوى من التخلف في مختلف المجالات الكثيرة مقارنة مع الطموحات التي ترسم من قبل اولي الامر والرأي، الراغبين دائما في اقامة مجتمع متقدم حر ومزدهر ينعم بالرخاء في ظل الامان والسكينة – هذا الانفتاح وهذا الطموح اللذين تجسدا في تبني التعددية السياسية في نظام الحكم الديمقراطي وحرية الصحافة وحرية النظم الاقتصادية والتخلص من اشكال الاقتصاد المقيد والوصاية الحكومية علي الانتاج والتوزيع والاستهلاك لتبني هذه الانشطة علي طبيعتها فعلا اجتماعيا مجتمعا تتبارى فيه البقريات والامكانيات الخلاقة للافراد الاحرار المتماسكين لمقدراتهم وقدراتهم ومتساوون في الخطوط والقرص متفاتون في المواهب والقدرات وبالتالي متفاوتون في الانتاج ولكل منهم حسب طاقته

المادية والمعنوية، قدرته الانتاجية مستواه التنظيمي والاداري، فعالية المبادرة والعقلانية الاقتصادية التي حباه الله بها هذا بالاضافة الي التطورات الملحوظة في مجال وسائل الاتصال الشيئ الذي جعل اثارة موضوع الاعلام والتنمية امرا مايزال في محله وهكذا فاننا سنناقش العلاقة بين الاعلام والتنمية باعتبار التنمية هدفا لغايات انسانية والاعلام وسيلة في خدمة الوصول الي هذه الاهداف لتحقيق تلك الغايات. وذلك من خلال مبحثين اثنين وخلاصة الاول «التنمية هدف لغايات انسانية» الثاني الاعلام وسيلة اساسية للوصول الي الهدف» اما الخلاصة فهي عبارة عن ملاحظات حول الدور الذي يمكن ان يلعبه الاعلام في التنمية الشاملة في المجتمع الموريتاني المعاصر.

اولا : التنمية هدف لغايات انسانية:

موضوع التنمية مجال يقتضي الحديث عن الدخول في مناقشة جملة من المفاهيم لايتسع هذا المقال لافائها حقها من التحليل وانما سنتنافي بالاشارة اليها تاركا للقارئ الكريم التوسع في مطالعة المراجع المتخصصة في الموضوع، فالتنمية من حيث عملية مقصودة يقوم بها الافراد في المجتمعات قصد التأثير في اوضاعهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية غير الكافية لاشباع حاجاتهم للتكيف مع المحيط المادي والاجتماعي وتطويره الي الافضل، تلك الافضلية المغيرة دائما حسب الاطر المعمارية لمختلف المجتمعات والحضارات وعلي مر الزمن، تعتمد الانسان هدفا ووسيلة والطبيعة والمجتمع مجالا والتاريخانية مسارا. ومفهوم التنمية هذا يفترض ان الواقع الراد انماؤه في وضعية تتسم بجملة من الخصائص تبرر امكانية واقعة الي الامام. من اهم تلك الخصائص :

1 – قابلية الانفعال اي انه معطي لفعل الانسان. قابلا للملاحظة العلمية والاختياري وخاضعا لامكانية التأثير. وهي خاصية تستبعد ماسواه من الرؤى الوثوقية التي تقول بحتميات مطلقة واقدار مسبقة خارجة علي امكانيات الانسان مبر التنمية وباني المدنية.

2 – النظرة الي الواقع المراد تنميته نظرة موضوعية لتفهمه وتفسير القوانين التي تحكم مساره.

3 – قابلية النمذجة وهو مايعني ان المتمع المراد انماؤه يشكل نموذجا من اشكال المجتمعات في اللحظات التاريخية والمكانية التي يترك فيها مع غيره. وهو مايتيح المخطط للتنمية فرص المقارنة والمفاضلة والاخذ والتبني والتقليد والاسترشار في نظام من المحاكاة والتبادل الحضاري بين الامم وتبادل التجارب والخبرات بين الافراد من شتى الثقافات وهو ماسنرى ان الاعلام قد يساعده فيه بقوة اذا توفرت الشروط الضرورية والكاتبية لذلك – ان خاصية النمذجة هذه هي التي ادت الي تناول موضوع التنمية لصيقا بمفهوم التخلف ورسم ملامح التخلف والتقدم لان الاشياء تعرف باضدادها فالتخلف عن ماذا!؟ والتقدم علي ماذا!؟ وماهي مدلولات هذه المفاهيم بالنسبة لمفصلة عالم اليوم دول متقدمة. واخرى متخلفة . دول نامية او سائر في طريق النمو... الخ. وعموما فإن التنمية كهدف تطمح اليه الدول اليوم خاصة تلك الموصوفة بالتخلف والتي تتميز بنياتها الاجتماعية بسمات ديمقراطية.

وتنسق ابيولوجي واقتصادي وبناء طبيعي وسياسي وحالة صحية وانسانه في تنويه وقيمة خاصة، تشكل مقارنتها مع تطائر من بنيات المجتمعات المتقدمة مجالا مناسبا للتحليل والتصنيف لتحديد المفاهيم.

وليس الهدف من المقارنة في هذا المقام مجدر الفهم وانما الهدف الاسمى هو التغيير في واقع المجتمع التخلف وتنميته عن طريق دفعة بارادة واعية وعلي ينح عقلاني مخطط في اتجاه تحقيق الغايات الانسانية الكبرى في تحقيق اعلي مستوى من الرفاه الاجتماعي، وهذا الاتجاه الذي ينظر الي التنمية كفعل انساني هدفا ووسيلة ينظر اليها كذلك من حيث هي عملية شاملة ومتكاملة تتناول الابعاد المجتمعية المختلفة. بعيدا عن المناظير الجزئية التي تركز علي بعد واحد او اكثر من ابعاد البنية المجتمعية فمثلا التنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحتي التعبير عن التنمية في بعض البلدان مرتبطة بقطاعات المجتمع وانظمته كتنمية للنظام التربوي او النظام الاعلامي او النظام الاقتصادي. فتنمية وتطوير هذه المجالات بمعني دفعها الي الامام او تجاوز بها من مستويات ادائية الي مستويات اكثر فاعلية، اهداف جزئية للتنمية الشاملة التي تهدف الي تنمية المجتمع بما تحمله هذه الكلمة من تكامل وظيفي مابين الانساق المكونة لهذا المفهوم فالمجتمع مجموعة من الافراد شكلت عبر الزمن انظمة تكيفية متكاملة تساندت للحفاظ علي الاستمرار والتعاون علي المعاش وجلب المصالح ودفع النوائب وليست الوحدات البنائية المشار اليها اعلاه الا لبنات لذلك البنيان الكلي الذي نشأ عبر الزمن ويتشكل ويتطور ويتغير بفعل التراكم الحضاري وتحديات الظروف.

وهكذا فان للتنمية من هذا المنظور التكاملي تعني بشأن النماء اي الزيادة والتطوير في مجمل هذه الانظمة وفي نفس الوقت في البرامج الاقتصادية لكي تؤدي اهدافها التنموية لابد ان تتكامل مع المناهج التربوية وانظمة التكوين والظروف الصحية للافراد المنجين وانظمة اتخاذ القرار والعلاقات الانسأنية الداخلية في المجتمع وعلاقاته الخارجية بالمحيط العالمي وانظمة القيم المتعلقة بالانتاج والتوزيع والسلوك الفردي والجمعي المرتبط بهذه العمليات.

وكذلك فان التنمية الثقافية ولااعلامية بمعني دفع المستوى المعرفي وتعاطي المعلومات وتطوير الانتاج الفكري ترتبط ارتباطا عضويا بباقي الانظمة الاخرى فالوسائل المادية والتكنولوجية واساليب التنظيم والاداء مرتبطة بدورها بالاشياء التربوية والاقتصادية والسياسية والعاداتية والتراكمات الحضارية الخ.

ان تحقيق اي تنمية شاملة علي هذا النحو يتطلب منا امور كثيرة الوعي باهمية التنمية في حد ذاتها كفعل انساني.

– النظر اليها في بعدها التكاملي وعدم التجزءة والتركيز علي بعد معين.

– البداية والتركيز علي البنية التلقائية للمجتمع التي تشكل في الغالب بيئة معبقة للتنمية وهو مايعبر عنه عادة بالمعوقات الاجتماعية للتنمية تلك المعلومات التي تؤثر تأثيرا سلبيا علي المسارات الانمائية للدول الطامحة للنماء ومن اهم تلك المجتمعات انظمة البنيات التقليدية كالقبيلة والعشائرية والفئات المغلقة وانظمة المكانات

والادوار والاحكام القيمة حول المستجدات وبروز الصفوات التقليدية علي وحدات الدول كقادة للرأي يقفون غالبا في وجه الحرائص الاجتماعية وشيوع الافكار التقليدية الجامدة والتفسيرات اللاعلمية الواقع والوقوف هذا تغييره وتطويره والخوف من المستقبل ولئن اختلفت الاتجاهات حول بداية الانطلاق من اين تكون؟ امن الادارة السياسية الرسمية ام من البنيات التربوية أو علي بعد او من البنبات الاقتصادية – والتكنولوجية. فاننا نعتقد ان الانظمة التربوية والاعلامية المكلفة بالدرجة الاولي ببناء الانسان الذي اداة التنمية وغايتها هما المدخل الانسب في اعداد مجتمع النماء وانسان التنمية. ولنأخذ الاعلام كوسيلة اساسية للتنمية التي هي وسيلة وغاية لتحقيق السعادة للفرد والمجتمع.

ثانيا : الاعلام وسياسة اساليب للوصول الي الاهداف التنموية.

نعني بالاعلام في هذا المقام مجموعة العمليات والاساليب والوسائط الاتصالية والانظمة والبرامج الاخبارية والعلمية والتوجيهية التي تقوم بها الدول والمجتمعات والهيئات الدولية لتبادل المعلومات والخبرات والتجارب لتحقيق التكامل العالمي والتفاهم الانساني قصد تمكن المجتمعات من تطوير المعارف وتحسين مستوى الهيمنة علي الطبيعة وتسخيرها لخدمة الانسان واقامة المدنيات البشرية – والاعلام بهذا المعني انظومة من البنيات ذات اهداف متعددة ومتنوعة – مهمتها الاساسية تبادل وتوزيع المعارف وهذه المعارف المتبادل هي ادوات التغيير والتجدد في ذات الفرد كما اونها ادوات التفاعل والاحتكاك بين الثقافات لتتكامل معطية نمطا جديدا يختلف عن سوابقه بحكم مكوناته الجديدة ومن هذا الباب يمكن الحديث عن دور الاعلام في التنمية في كافة المجتمعات وفي المجتمعات النامية التي تنتمي اليها وكما اسلفنا فان هذه الامكانية تبقي مشروطة بجملة من المعطيات الم تتحقق فانها ستظل امكانية ضعيفة – هذه المعطيات تتعلق بالنظام الاعلامي كجزء من النظام المجتمعي ككل ومستوي تكامل مخطط التنمية المنتهج في اي بلد وفي اي فترة من الفترات التاريخية – وهكذا فان النظام الاعلامي يكون في خدمة التنمية الشاملة في مجتمع كموريتانيا اذا توفرت فيه شروط تذكر منها علي وجه الخصوص:

– انتهاج الاسلوب العلمي في تقديم المعلومات والآراء والافكار ويوضع كل موقعه.

– تحديد الاهداف الاعلامية وجعل التنمية الشاملة للمجتمع في ابعادها المختلفة في اولويات تلك الاهداف.

– تملك وسائل انتاج وبث وتبني قادرة علي مواكبة الجديد.

– التمكن من مواجهة الواقع الاجتماعي الذي تشكل المعوقات الثقافية عقبة امام تطويره.

– البعد عن المحاماة والمجاملة والنفاق الاجتماعي لتكسير طوق القوالب المعيقة للتطور.

– القدرة علي احتلال اهتمامات المتلقي بالبحث الدائم عن مركز حاجاته وطموحاته للاخذ بيده الي بر التطور والنماء والانتشالة من متاهتي التقليد الاعمي والجمود في اطره العقوبة التلقائية أو الآلية والتعلق بين خارف القوالب الجميلة الجاهزة، التي تقدم من وسائل اعلام خارجية لاتمت بصلة لهذا الواقع الذي نحن فيه.

ان توفير هذه الشروط مسؤولية جماعية يتحملها الفرد والمجتمع والدولة وليس لأن من التالوت بمفرده المقدرة علي توفير هذه الشروط. فالفرد الاعلامي مهما كانت عبقريته وارادته لايمكن ان يوفر هذه الشروط كما ان الدولة مهما وفرت من حريات سياسية واعلامية وبنيات اتصالية ومؤسسات وبرامج لن ذلك كافيا مالم يكن المجتمع قادرا علي تحمل مسؤولياته في هذا المجال والشعور الجمعي بالدور الذي يمكن ان تلعبه البنية الاعلامية في تنمية قدراته والرفع من مستوى مصالحه، وبهذا تكون الادوار المحددة للاعلام في مجال التنمية الشاملة علي مختلف الاصعدة دائرة في ثلاثة ابعاد :

– بعد اعلامي : يهدف الي نقل التجارب الانتاجية والتكنولوجية والتنظيمية التي مكنت دول اخرى من النهوض لامكانية المحاكاة وتجنب العثرات والاخطاء التي واجهت تلك الدول وهو بعد يتطلب القدرة علي انتقاء التجارب الناجه واختيار المادة الاكثر ملاءمة كما يتطلب تأهيلا مهنيا للاعلامي يجعله قادرا علي استيعاب الفكرة وقادرا علي توصيلها بأي اساليب التوصيل وملما بتظريا الاتصال ومتوفرا علي وسائل الاتصال الضرورية.

– بعد توجيهي اصلاحي ينطلق من ان الاعلام ليس هدفا في ذاته ولكنه وسيلة لتحقيق جملة من الاصلاحات التنموية وهذا لايعني ان تحكم الحقيقة بالهدف كما هو مألوف لدى الايدولوجيون بل ان الامر يتعلق بكون العلم ينبغي ان يبقي دائما في خدمة الانسان وهو مايلزم رجل الاعلام في بلد نام كموريتانيا يتساءل ولو في نفسه عن لماذا تقدم هذه المعلومة ولمن نقدمها ومن اجل ماذا؟ اذا تحدثنا عن تجربة النهضة اليابانية وعن زراعة الارز في الصين وعن تاريه الهنود الحمر في آمريكا فماهي الغايات التنموية التي نستهدف من وراء هذه البرامج ان الاعلامي اذا لم يكن واع بهذه الاهداف فانه قد يضيع وقته بأي شيئ لا لشيئ فلكي يكون الاعلام في خدمة التنمية الشاملة لابد ان يكون ذا بعد توجيهي اصلاحي هدفي.

– بعد نهضوي انمائي: يعمل الاعلامي بموجبه علي تطوير مختلف الانظمة المجتمعية بوساطة النقد البناء والتحليل الموضوعي للظواهر والاحداث والرقابة علي المسلكيات الضارة بالمجتمع والمعبقة لنمائه والعمل الدؤوب علي تغيير القيم المعرقلة – و الاشادة بالقيم النهضوية البديلة كحب العمل والتعلق بالمصالح الجماعية وتبني النهج العلمي في الانتاج والانفتاح علي تجارب الآخرين وتقبل التغيير في المكانات الاجتماعية والتحلي بسمات العصونة والابداع. ولااعلامي الذي نعنيه هنا الفرد الذي يمارس المهنة والمؤسسات والانظمة والبنيات التي تتولي الاشراف علي هذا الجانب بغض النظر عن طبيعتها وجهة ملكية وساذل وتسييرها عامة كانت او خاصة – وهكذا فان الدور الذي يلعبه او يمكن ان يلعبه الالام في موريتانيا الحديثة اليوم لايختلف عن هذه الابعاد العامة الا بقدر انطلاقه وتركيزه علي الواقع المحلي وخصوصيات هذا الواقع فماهي السمات التي تمر بموريتانيا اليوم. وكيف يؤدي الاعلام دوره الفعال في تطوير التنمية.

ثالثا : دور الاعلام في المساهمة في النمية الشاملة في موريتانيا

يمكن ان نحدد السمات العامة للواقع الموريتاني اليوم والدور الذي يمكن ان يلعب الاعلام في تنميتها في الملاحظات التالية:

1 – ان موريتانيا اليوم وكما اسلفنا في توطئة هذا الموضوع تشهد تغييرا احتماعيا علي الاصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

2 – انها اصبحت جزءا من عالم متناقض ومتفاوت في كل شيئ.

3 – انها تطمح الي ارساء هذه المناهج السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة وتطويرها في نفس الوقت لتصبح في مستوى اولئك الذين يملكون تراكمات – تجارب حضارية في تعداد المجال ولهذا فإن مطالب علي وجه الخصوص بالعمل علي :

– تبيان الحقائق الاجتماعية التي تشكل عوائق في وجه التنمية عن طريق المساهمة مع الباحثين والكتاب ورجال الفكر والفقه علي غربلة الثقافة الشعبية وتحديد ماينبغي الابقاء عليه مايجب ازاحته كالقبيلة والطائفية وتوارث المكانة والاتكالية وتحكم القيم اللاواعية في النظر الي الانتاج والمصلحة والحضارة والآخر.

– ان يعمل بجدية علي توعية المجتمع بطبيعة الانماط السياسية الجديدة خصوصيات التعددية السياسية وادراك حدود الاختلاف والحرية والقانون، وذلك من خلال تفهم الثوابت والمتغيرات في هذا المجال ومحو آثار المجتمع التقليدي مابعد الدولة من جبهة ومجتمع الدولة الاحادية النهج السياسي، اوبقايا التصورات الايديولوجية الوثوقية التي تشكل عوائق للكثير من افراد النخب المتواجدة في ابنية الدولة والمجتمع والتي قد تتفق مع الصفوات التقليدية في مستوى النظرة الي الآخر المغاير في الرأي والتصور فالحقيقة الموضوعية ان الصواب ملك للجميع وموزع علي الجميع ويمتلك كل واحد نصيبا منه كما البناء الحضاري عمل اجتماعي يؤديه الجميع.

– العمل علي توعية المجتمع علي معنى الحرية الاقتصادية وازاحة الظلمات والرواسب التي خلفتها الانظمة القائلة بهيمنة الدولة علي الانشطة الاقتصادية وتبيان ان هذه الحرية ستقيد من تلقاء نفسها بتضارب المصالح وتقيد بالقانون وفقا لمواصفات المجتمع نفسه واحتياراته بواسطة ثوابته ثم انها انجع في مجال التنمية الاقتصادية من غيرها.

– العمل علي الوعي بمعنى حرية التعبير، فحرية التعبير ليست في ان يقول الانسان ماشاء، وانما هو حر في ان يقول الحقيقة البناءة التي تمت بصلة الي المصالح العليا للمجتمع والدولة في ظل القواعد المقررة في القانون، واذا ما استطاع الاعلام ان يحقق هذه المطالب فانه قد ساهم مساهمة فعالة في تطوير الانظمة الاجتماعية التلقائية اولا والرسمية ثانية وفي اوجهها المختلفة فتتناقل المعلومات والتجارب والآراء والافكار بصدق وحرية، وتوجه المجتمع الي النماء التربوي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي بصفة عامة. وهي ادوار سامية للاعلام ان يلعبها بوصفه وسيلة لتحقيق اهداف التنمية الشاملة التي هي غاية انسانية لكل الدول والشعوب قصد تحقيق الرفاه والسعادة الانسانيين.

groupe ne comptait qu'une vingtaine de personnes et ne disposait que d'un armement des plus sommaires : quelques fusils de traites qui mériteraient plus le nom de pétoires, quelques sabres ou poignards. C'est d'ailleurs une arme blanche (un sabre) qu'arborait le chef du commando, Sidi Ould Moulaye Zeïn, lorsqu'il fut intercepté par le lieutenant Etievant, qui le tua d'ailleurs en lui arrachant son sabre et en le lui plantant dans le ventre (1). Mais l'effet de surprise aidant l'audace et le courage des éléments du groupe lui ont permis de réaliser pleinement son but : éliminer Coppolani.

Stratégie revisée

Au début de la confrontation, la résistance envoyait de gros contingents, mal armés, au combat : plusieurs centaines d'hommes. Les historiographes coloniaux parlent même de plusieurs milliers. Ce qui semble exagéré pour ne pas dire invraisemblable.

Après les premiers engagements les résistants comprennent vite que le nombre ne pouvait rivaliser avec l'efficacité de l'armement colonial.

Revisant ainsi leur tactique ils n'engageront presque plus que de petits groupes, plus ou moins autonomes, attaquant par surprise, tendant des embuscades, avant de se dérober aux actions de recherche et de représailles.

"En vain , dira J.S Canale, les armées africaines feront-elles preuve de l'aveu de leurs adversaires - d'une extraordinaire intelligence tactique adaptant au maximum les méthodes de combat aux moyens en présence : c'était la lutte du pot de fer contre le pot de fer". (2)

A suivre

(1) CDT M. Chailley, résumé de conférence à la Société de Géographie, 1955, P,20
(2) CDT Chailley, op. cit. P 21
(3) Idem, P. 21
(4) jean Suret Canale : Afrique Noire, Géographie, Civilisation, Histoire Ed. Sociales, Paris, 1973, P 248.
(1) Commandant breveté Gillier : "La pénétration en Mauritanie" Genthner, Paris, 1926, P. 307
(2) Gillier, op.. cit. P. 307
(1) Geneviève Désivé Vuillemin : contribution à l'Histoire de la Mauritanie 1900-1934 - Claviafrique, Dakar, 1962, 135
(2) J.S. Canale : op. cit PP. 248 - 249

S'il est vrai que ces derniers réussissent parfois, grâce à des filières extérieures ou après des coups de main ponctueux contre l'adversaire, à se procurer des armes, en l'occurrence les fameux "fusils à tir rapide en nombre toujours très milité il est dangereux d'en conclure, comme semble l'avoir fait si facilement le commandant Gillier, que l'armée coloniale et la résistance luttaient à armes égales. Le théoricien de la stratégie militaire coloniale dans le pays ajoute même que l'ennemi dispose, en plus de la supériorité numérique (2). La question qui vient tout de suite à l'esprit est la suivante : si les groupes de résistants disposent et d'un armement au moins égal et de la supériorité numérique, pourquoi n'ont-elles pas atteint leur but, à savoir rejéter hors du territoire national les troupes d'invasion ?

En réalité ce qui caractérise les confrontations entre envahisseurs et résistants c'est l'abondance des munitions et des armes individuelles côté envahisseurs, abondance à laquelle il faudrait opposer un grand dénuement côté résistants. Il n'était d'ailleurs pas logique que ces derniers ne détenant pas le savoir faire et la technologie nécessaires à la fabrication d'armes et de munitions et ne disposant pas de moyens financiers très importants pour l'acquisition d'un grand nombre d'armes et de munitions de contrebande, puissent, dans ces conditions, lutter à "armes égales" avec l'armée d'invasion.

Une autre caractéristique de ces combats est l'absence d'artillerie ou de mitrailleuse côté résistants.

Et c'est aisément compréhensible, car ils en ignoraient l'usage en plus, ces armes, vu leur poids et le nombre de munitions qu'elles nécessitent pour être efficaces, sont incompatibles avec les moyens de transport et la mobilité tactique, qui est en fait l'un des point forts des résistants;

Audace et bravoure

En fait plus que les armes, c'est la bavoure et l'audace de ces derniers qui leur permit d'avoir des succès et de transformer leurs faiblesses en points forts. Il n'est que de rappeler le coup de main du groupe de Sidi Ould Moulaye Zeïn, le 12 mai 1905, contre le camp de Coppolani à Tidjikja. Ce

On peut estimer, par conséquent, que Coppolani avait choisi une option de sûreté, qui n'est, certes, pas sans difficulté mais qui permit à la pénétration coloniale d'emprunter le chemin le plus sûr vers la réussite. On voit donc que malgré une certaine confusion dans les objectifs, malgré certaines hésitations, l'envahisseur s'est trouvé dès le départ dans une position polititque avantageuse par rapport à ses adversaires, contraints de faire front dans un ordre très dispersé.

II Le domaine militaire

Mythe de l'égalité des armes

Le domaine militaire est celui où l'envahisseur dispose d'atout majeurs. La supériorité technologique de la France par rapport à la Mauritanie de l'époque, encore plongée dans les méandres du féodalisme, est incontestable. Cette supériorité se traduit d'abord dans la qualité et la quantité des armes : fusils à tir rapide, fusils-mitrailleurs, pièces d'artillerie, munitions à profusion...

Vers la fin des années 1920 et au début des années 1930, l'avion et l'automobile seront mis à contribution et constitueront, à n'en pas douter, un atout décisif dans la réduction de la marge de manœuvre des résistants. Jamais aucun groupe de ces derniers ne s'est trouvé, face à un détachement colonial, dans une situation de supériorité dans le domaine des armes.

De quelles armes ont disposé les "rebelles" ? Le plus souvent de vieux fusils à un coup, fusils à pierre ou à piston utilisant des munitions de fortune, sabres, poignards,etc.

L'"armement perfectionné" que la résistance aurait détenu, n'est qu'un mythe savamment entretenu par l'historiographie coloniale pour justifier les interventions disproportionnées qu'elle peut opérer. Gillier, officier de l'armée coloniale et auteur d'une "histoire de la pénétration en Mauritanie, va jusqu'à affirmer que les unités méharistes "luttent à armes égales" avec les résistants (1)

Supériorité numérique

l'impérialisme français de réaliser leur programme de conquête.

En un certain sens, la réussite de Coppolani est aussi celle des Chioukh contre leurs adversaires : mobiliser à ses côtés une puissance telle que la France est assurément une gageure qu'ils ont bien remportée. On pourrait, à ce propos, dire avec jean-Suret Canale que " Ce sont souvent des africains qui eux-mêmes provoqueront l'ingérence française, avec l'espoir... de l'utiliser à leur profit contre leur adversaires africains". (4)

Abandon partiel

L'on peut arguer, pour le cas de la Mauritanie, que l'alliance conduite par Coppolani avec les "Zwaya" est contre-nature car le pouvoir politique était entre les mains des tribus "guerrières". En fait si l'autorité politique appartenait effectivement à ces dernières les Chioukh (ou marabouts) n'en étaient pas entièrement dépourvus. D'abord par le fait que, détenteurs du pouvoir spirituel, ils étaient forcément impliqués dans la politique, l'Islam ne séparant pas cette dernière de l'exercice de la foi et du spirituel. Ensuite parce que toute chefferie guerrière s'appuyait nécessairement sur une ou plusieurs tribus "Zwâya" et ce simple fait signifie l'"abandon partiel" par les tribus guerrières d'une partie de leurs prérogatives.

En fait si la thèse de Coppolani, qui consiste à s'allier avec les marabouts, s'est révélée fructueuse, elle n'en a pas moins hypothèqué et pendant longtemps, l'influence française en Mauritanie. La préférence clairement affichée par Coppolani des Chioukh (préférence, somme toute relevant de la tactique politique) a provoqué, une "levée de bouclier" des chefferies guerrières, pour qui le message de Coppolani signifiait soustraction de la prééminence politique. On ne doit pas s'étonner que cela soit surtout des "guerriers" qui aient fourni les plus gros contringents de résistants, même si par ailleurs c'est un Cheikh religieux, Ma-Al Aïnine qui est resté un adversaire irréductible et le porte-drapeau du rejet du colonialisme.

Le chemin le plu sûr

---

aptes à une motivation coloniale, comme les conscrits des pays conquis, plutôt que de se soustraire à "leur mission" se cantonnent souvent dans une indifférence positive.

Le camp colonial s'est presque toujours distingué par une solide unité politique face à l'émiettement de l'autorité en Mauritanie.

C'est ainsi qu'il a pu mettre en pratique, et dans une large mesure, le vieux principe "diviser pour régner".

Coppolani (1866-1905) fut le théoricien et l'exécutant de la pénétration française en Mauritanie au tout début du XX è siècle. Grand connaisseur de l'Islam féru de culture arabo-musulmane et parlant la langue arabe, il était sans doute le meilleur choix pour une action de conquête.

Après quelques visites de contact où il ne dépassait pas le Trarza, Coppolani comprit tout le parti qu'il pouvait tirer et de la structure traditionnelle de la société et des contradictions entre les chefs ou groupes sociaux. Il décida que l'axe de son action serait l'alliance avec les tribus maraboutiques et les Chioukh (pluriel de Cheikh, chef spirituel). A ce propos il disait : " l'élément le plus stable chez les musulmans c'est la foi... Pour que la France puisse réaliser son plan d'ordre et sa mission d'émancipation, il faut qu'elle s'appuie sur les milieux réligieux : non les neutraliser, mais les attirer"

Contradiction majeure

Selon Coppolani "les guerriers tyrannisent les marabouts... De cette situation les marabouts souffrent (2). c'est sur cette contradiction majeure que la "pénétration pacifique "à bâti sa politique de conquête de la Mauritanie.

Sans négliger les alliances possibles avec des chefs guerriers, Coppolani parvient à ralier deux éminents Chioukh, Cheikh Sidiya et Cheikh Sâad Bouh dont Chailley disait que "l'un et l'autre sentaient fort bien que l'anarchie du pays était inguérissable sans aide étrangère, ils en concluaient que leur pays ne serait regénéré que par la France.. "(3)

Cette situation politique inespérée permet aux agents de

Axes de réflexion pour un bilan de la confrontation entre mauritaniens et colonisateurs français

(XIXé - début XXéS)

La Mauritanie fut confronté dès le XIXè siècle à une grande puissance coloniale et qui devait entamer son occupation effective dès les premières années du XX siècle.

Il aura fallu cependant plus de 30 ans, lors de cette dernière phase, pour que l'envahisseur européen, vienne à bout d'une résistance qu'il ne prévoyait pas aussi longue et difficile à réduire.

Pourquoi les mauritaniens ont-ils continué pendant plusieurs décennies à harceler les troupes d'occupation ? Pourquoi la formidable machine de guerre française a-t-elle souffert avant d'avoir raison de quelque groupes hommes détenteurs d'un armement des plus sommaires ? Pourquoi d'éminents chefs mauritaniens ont choisi dès le début le camp français ?

Notre propos n'a pas la prétention de donner des réponses satisfaisantes à toutes ces question.

Notre ambition est de contribuer à poser correctement la problématique en proposant quelques axes de réflexion

I Le domaine politique

Au plan politique, le colonisateur s'est presque toujours trouvé en position de force. Ses agents d'exécution étaient choisis et envoyés sur les champs d'opération en fonction de leur accord et même de leur engagement avec et aux côtés de la politique coloniale.

Il est rare que ces agents, qui comprennent parfois des théoriciens de la colonisation (Faidherbe, Coppolani, Gouraud) parviennent à un dégré de divergence tel qu'il pouvait mettre en danger ou arrêter le processus d'exécution de l'entreprise coloniale. Même les agents les moins

Attalim

Pédagogie et culture

Il n'est jamais trop tard pour presenter une revue culturelle; "Attalim" sortie il y a deux mois a encore une fois fait un tour de ce qui interesse le pédagogue, l'intellectuel et aussi le grand public.

Agée de 22 ans, Attalim . fait figure d'ancêtre des revues culturelles, elle en est certainement la plus diversifiée et la plus volumineuse: 450 pages pour ce 28é numéro.

Pour ce numéro, l'Institut pédagogique national qui publie la revue a axé d'abord (cela se comprend) sur les questions didactiques.

L'enseignement des Mathématiques, de la physique, de la géographie, de la grammaire, du Français, de l'Anglais sont abordés dans cette livraison. Mais ceux qui s'interressent à l'histoire découvriront avec plaisir l'article de Mohamed Said O/ Hamody, "Mauritanie: le face à face pluriséculaire avec l'Europe" ou selui de Mohamed-en O/ El Mahboubi sur " le rôle

des "chinguitiens dans la propagation de l'Islam en Afrique de l'Ouest" La littérature, la communication (Internet) sont également abordés. Mais l'objectif de Attalim reste celui fixé par le directeur de l'IPN", socle d'un enseignement meilleur, capable de guider dans le sens du progrès et de la morale, ces générations prometteuses vers une modernité et un développement compris et valorisé".

Passereau

Un passereau sur la dune perché
Chantait
Nostalgie d'une branche d'acacia
même morte
Nostalgie d'une brindille de
roseau
même brûlée
Le passereau pleurait
Les jours cléments
Les nuits de lune
Le passereau suppliait
Les chuchotements des silences
de brise d'hivernage
Les vents de printemps frais
de pluie
Le passereau souffrait à fendre le
cœur
Le sable nu à perte de vue
Le vent brûlant ininterrompu
Tout est changé dans le pays du
passereau.
Chagrin, Chagrin, Chagrin
A Mourir

Nomadées

Il y a mille ans.
Pourquoi tant de poussière
Entre la mère et l'enfant
Pourquoi tant de mots morts
Sur les lèvres du temps
Pourquoi tant de mensonges
Alors qu'il y a le sang
Dans chaque veine
même raidie par le temps
Dans chaque tombe
même ensevelie sous le sable
Dans chaque mémoire
même falsifiée
Chinguetti
Il y a mille ans
C'est toujours Chinguetti
Et la randonnée des bâtisseurs
d'oasis
Est Toujours leur randonnée

Idoumou
Ould Mohamed Lemine

Le vieil homme est là, désossé, presque aveugle, attendant que la Jama'a tranche pour lui. Recroquevillé sur ses jambes, adossé au mur, il attend avec angoisse le verdict qui le libérera de ses peurs et lui donnera la force d'agir.

Je regarde l'instituteur, qui déjà a commencé à parler de Science, de Progrès, d'Avenir.

Je hais ce boubou bleu délavé qu'il porte tous les jours, ces mains qui s'agitent comme pour illustrer des vérités évidentes, cette certitude qui exsude des gestes, cette foi qui enflamme les traits du visage. Je feins de ne pas l'écouter, de somnoler légèrement.

Dahmane me pose une main sur l'épaule, histoire de me reveiller, "écoute bien, nous avons besoin de ton avis" me dit-il. Je suis donc avec un intérêt forcé le discours de l'instituteur. Il s'arrête a chaque phrase, martèle les mots comme pour mieux les enfoncer dans nos têtes. Il leur insuffle toute la vigueur de ses certitudes. J'exécre cette passion et cette rage de persuader. Elle me rappelle des souvenirs que je croyais abolis, ceux de mes vingt ans, quand je croyais pouvoir changer la société, révolutionner les mœurs, éliminer les corruptions.

Je me lève lentement dès la fin du discours. Je feins la suprême indignation. Je brosse éloquemment, devant les visages inquiets, les dangers d'une ville où le mal est partout présent. je leur fais deviner les malheurs d'une jeune fille livrée en pâture à un monde sans âme et qu'elle ne connait point. Je leur parle de moi, de ma jeunesse ratée, des études qui ne m'ont servi à rien, des connaissances accumulées et dont je ne peux me servir. Des hochements de tête accompagnent mes paroles. L'instituteur me fixe des yeux, ébahi par cette inattendue intervention. Il me connait instable, arrogant, mais il ne m'imagine point ennemi du savoir, de la science, du progrès, de l'émancipation féminine. Je termine mon discours par quelques mots blessants à l'égard de ceux qui voudraient nous deshonorer, envoyer nos enfants, nos filles surtout vers l'inconnu.

Un silence oppressant pèse sur toute l'assistance. Les têtes baissées semblent profondément réfléchir.

Le désarroi brille encore plus dans le regard du vieil père d'Aicha. Je soutiens le regard enragé de l'instituteur. Je lui souris même pour accroître son indignation. Je sens que j'ai gagné, qu'a défaut de vraiment convaincre, j'ai su au moins troubler l'esprit de ces paisible villageois,

Dahman relève soudainement la tête, observe rapidement toute l'assemblée et déclare d'un ton las mais ferme : "Aicha n'ira donc pas en ville".

Je vois le découragement envahir les traits alourdis de l'instituteur. Un vieux contentement m'envahit tout le corps

compréhensif, son verbe trop raisonnable, ses idées "avancées". Je ne sais ce qui m'a pris un jour à vouloir jouer son jeu, par dérision. Il s'était, devant tous saoulé de bons mots, il avait abondamment disserté sur le coopérativisme, l'entraide, les mouvements associatifs, la lutte contre l'ignorance. A mon tour, je développai des théories futiles et grandiloquentes, je maniai des concepts vides. je l'agressais ainsi, je voulais le ridiculiser, mais il prit mon discours au sérieux, il m'applaudit même entraînant avec lui le public . Malgré mes protestations, malgré mes insolences, il ne m'appella plus depuis ce jour que "Docteur..." Il met dorénavant toutes mes grosseiéretés, toutes mes inconséquences sur le dos du savoir. "Ils sont souvent comme ça, ceux qui savent" disait-il tout bas aux villageois.

La Jemaa s'assemble devant la demeure du vieux Dahmane. c'est lui de fait, le chef du village. Un monarque incontesté mais bon et juste. c'est la seule personne ici à qui j'ai dû montrer de la déférence. En vérité, il m'en impose, bien malgré moi avec son visage altier, sa voix calme et ferme, sa longue barbe blanche.

Il sont tous déjà là, les douze membres de la Jema'a, l'Instituteur a déjà installé devant lui les ustensile nécessaires pour l'incontournable thé.

C'est toujours le plus jeune qui prépare la tisane, indispensable pour les longues palabres. C'est à moi, étant le moins agé, qu'aurait du échoir ce rôle, mai je feins toujouts d'oublier cette coutume.

Je préfère délaisser cette corvée à l'intituteur. Il s'en occupe avec minutie, mais je trouve toujours un malin plaisir à juger trop amer le thè qu'il nous sert. Il me répond toujours d'un sourire compréhensif qui m'agace.

Comme d'habitude, les discussions tournent d'abord sur ce qui se passe dans le monde. Ces hommes là, déjà agés reclus dans un village qui n'est relié au monde que par de vieux transistors, ne ratent jamais un seul flash d'information. Je me borne souvent à élucider certaines questions complexes, à situer géographiquement certaine régions lointaines. Ainsi, je trace parfois, sur le sable, les contours de la Bosnie, de l'Erythree ou de l'Afghanistan.

Ce n'est qu'après longues discussions qu'on en arrive au sujet de la réunion. Cette fois-ci je m'en doute bien : c'est la sempiternelle histoire de cette Aïcha qui, parait-il, a assez appris ici et qui voudrait aller en ville pour faire des études. Je n'ai jamais porté Aïcha dans mon cœur. C'est une fille maigrichonne, arborant toujours une mine sévère. Personne ne lui a jamais connu d'aventure.

Elle, dont personne n'attenterait à la vertu est la gardienne impitoyable de celle de ses sœurs, plus jeunes qu'elle, plus fraiches, beaucoup plus agréables. Aicha avait formulé devant son père le souhait de pousser plus à fond des études entamées ici, aux cours du soir données par l'instituteur.

Nouvelle

Elle n'ira pas en ville

Je regarde fixament le lézard s'accrochant aux troncs de palmier soutenant la toiture. Il avance lentement, balance d'abord la tête pour flairer le danger. Il n'a pas confiance, le lézard. Il est conscient des embuches qui sèment tous les terrains : il est comme moi.

Cela ferait rire la mère Nana, cette idée du lézard me resemblant. Elle y verrait une autre preuve de mon inconséquence et ne m'en converait que plus.

"Vous voyez, c'est presque un enfant, il ne faut pas le prendre au sérieux dirait-elle à toutes les voisines. Au fond, elle est ravie de mon irresponsabilité, Nana, je suis devenu un peu l'enfant qui lui manque. J'en profite certes un peu mais cela lui fait plaisir., au fond.

J'espère que M'Barka a mis de l'eau dans les cruches.

Je prendrais bien un bain avant d'aller à cette fastidieuse réunion. Je pourrais aussi me frotter le corps calmement, en l'absence de mère Nina. Elle ne m'interpellerait pas continuellement pour me recommander de ne pas gâcher l'eau. Nina n'a pas oublié le vieux temps, "le temps béni des grandes raretés", comme elle l'appelle. Je n'ai jamais compris son attachement à ses années de vie au désert, à cette période pourtant si rude.

Les cruches son vides. M'Barka est certainement allée flaner. Je l'étranglerais bien. Mais Nina y est si attachée.

A la porte de la maison, un vent frais me caresse le visage. Le village semble désert en ces débuts de fraicheur. Les habitants préfèrent, cet après-midi aller sous les palmeraies, pour mieux profiter de la douceur du temps, pour se reposer un peu de l'incandescente chaleur de ces dernières journées. Marouf et Sidna viennent d'étendre sous l'ombre hésitante d'un arbre une large couverture. Il la couvriront de sable, y dessineront un damier, et entameront une partie qui ne se terminera qu'au coucher du soleil. Ils me hèlent de loin pour que je les rejoigne. Je leur signifie, d'un geste de la main, que c'est imposible. J'aurais très voulu pourtant passer le reste de la journée à jouer avec eux. mais cette "Jema'a" ennuyeuse m'appelle.

Je ne sais pas qui a pu bien pousser le vieux Dahmane à me désigner dans cette assemblée des sages du village. C'est certainement cet inévitable instituteur. Dès les premiers jours pourtant j'ai haï son allure trop sereine, son regard trop

Le premier est celui de la préservation et l'amélioration du milieu naturel au niveau des espaces où se concentrent aujourd'hui les populations etr ce, par la protection des sols, la regénération des végétaux, l'exploitation judicieuses des roussources en eau.

C'est dans ce cadre qu'on pourrait inscrire la politique des Pouvoirs publics en matière de plantations des arbres par la création d'espaces verts dans les centres urbains, le regénération des gommeraies dans le centre et le sud du pays, la construction d'ouvrages hydrauliques et l'extension des surfaces cultivables dans les zones méridionales.

Le deuxième front est celui de l'arrêt de la progression des dunes par des actions de longue haleine contre l'ensablement à travers des programmes à grande échelle dans les zones bordières de l'immense "sablier" pour tenter de le contenir.

C'est dans ce domaine qu'on pouvait situer les projets d'aménagement agricoles initiés au niveau national dans les zones menacées (Lac R'kiz, Lac D'Aleg), de même que les actions d'épandages aériens des germes de plantes en vue d'une régénération de la végétation.

Le troisième front devrait avoir pour objectifs la reconquête ne serait-ce que partielle des terres "perdues" par la multiplication et l'extension des foyers de vie partout où cela est possible, afin de rompre dans la mesure du possible la continuité de la base arrière des champs dunaires en mouvement.

C'est à ce niveau que se situent les efforts des autorités nationales pour favoriser la fixation des populations dans leur terroir : transport gratuit des paysans désirant retourner dans leurs lieux d'origine pendant l'hivernage, construction d'ouvrages hydro-agricoles et multiplication des forages dans le cadre d'une plus grande extension de l'hydraulique villageoise et pastorale et mise en œuvre d'une poliqque d'assistance des populations en vue d'initier des actions de reboisement dans de nombreuses localités du territoire national

Cette immence entreprise que nous devons mener pour préserver et regénérer notre milieu est indissociable du devenir de notre développement économique et social. Mais elle risque de demeurer vaine tant que l'adhésion des populations à une telle œuvre n'est pas effective. Et la première bataille à gagner dans ce domaine réside dans la transformation des mentalités

cheresses précédentes qui auraient constitué des occasions d'un brutal réajustement de l'occupation des hommes et des animaux aux possibilités du milieu, cette sécheresse exceptionnelle, marquée par des déficits pluviométriques remarquables, a entraîné des pertes considérables dans les rangs du cheptel qui se sont chiffrées par des centaines de milliers au cours des premières années, la dégradation ou la disparition quasi-totale du couvert végétal sur des centaines de milliers d'hectares, le tarissement des nappes superficielles dont dépend, entre autre, la vie agricole dans les oasis, la remobilisation des champs dunaires qui menacent désormais d'ensevelir les espaces agricoles, les routes et des localités entières, même les zones périphériques des grandes agglomérations ne sont pas épargnées.

Les conséquences d'un tel phénomène ont été à la mesure des perturbations naturelles engendrées par la détérioration du climat : c'est la sédentarisation massive des populations nomades, une urbanisation accélérée difficilement maîtrisable, en un mot un bouleversement sans précédent de la répartition spatiale des hommes et de leurs actitivés.

Donc, on peut dire que - ici peut-être qu'ailleurs - les fluctuations climatiques illustrées par la sécheresse et son corollaire la désertification, par la rupture des équilibres qu'ils ont entraînées ont véritablement modelé le pays et dénotent de l'importance de l'emprise du milieu sur notre vie.

Mais ces effets, si considérables soient-ils, ont été amplifiés par l'action de l'homme et ce malgré les efforts entrepris par les Pouvoirs publics ces dernières années.

L'agressivité des hommes vis à vis du milieu s'est concrétisée par la destruction abusive du couvert végétal, la surchage pastorale, la surexploitation des végétaux la déforestation par le bois de chauffe et les autres usages domestiques, les feux de brousse, la remobilisation des dunes, la destruction des sols, la surexploitation des nappes phréatiques et subphréatiques etc.

Aujourd'hui, devant la réduction des domaines d'agriculture et d'élevage, génératrice de la concentration des hommes au risque d'accentuer encore le déséquilibre au détriment des possibilités du milieu, nous devons prendre concience de la nécessité de mener des actions conjuguées et durables pour arrêter l'engrenage, du retrésissement continuel de notre espace de vie.

Cette lutte pourrait se dérouler logiquement sur trois fronts :

Le contraintes de l'écologie

Désertique dans sa partie septentrionale et centrale, sahélienne au sud, notre pays se caractérise par un milieu naturel particulièrement difficile qui l'a façonné et a marqué d'une empreinte spécifique l'évolution économique et sociale de ses habitants.

Cette situation n'est pas nouvelle, le dessèchement progressif du Sahara, commencé déjà depuis quelques milliers d'années avec toutefois une alternance de périodes plus ou moins humides et sèches - a généré un véritable mouvement pluriséculaire vers le sud de l'immence "Sablier" saharien entraînant avec lui un déplacement généralisé des ressources et des hommes vers les régions méridionales de l'espace mauritanien. Cette illustration du poids de la détérioration du milieu naturel sur la répartition des hommes et de leurs activités est significative à plus d'un titre. Les immences étendues du nord et du centre du Pays sont devenues de véritables moman's land. Nos villes historiques (Chinguetti, Ouadane, Tichitt, Oualata...) qui furent de grands ports caravaniers et de prestigieux centres de rayonnement culturel et religieux, on dépéri, se sont dépeuplées sous l'effet combiné du déplacement des axes commerciaux du Sahara vers l'Atlantique et de la dégradation du milieu.

La crise climatique des 25 dernières années est venue rompre un équilibre naturel déjà fragile pour des populations en grande partie nomades ou sémi-nomades. un équilibre déjà menacé par un certain nombre de facteurs :

- un contexte climatique exceptionnellement favorable pendant les années 50 et 60.
- Une "paix" coloniale qui a limité l'entrave majeure représentée par l'insécurité endémique caractéristique du monde nomade.
- La multiplication de puits pastoraux dans la zone sahélienne.
- La mise en œuvre de programmes d'éradication des grandes épizooties (peste bovine, tripanosomiase, péri-pneumonie).

Tous ces éléments ont favorisé un gonflement exceptionnel du volume des troupeaux entraînant par conséquence une surcharge pastorale dans les zones de pâturage.

La vague de sécheresse des années 70 et qui s'est poursuivie a occasionné des perturbations considérables. A la différence des sé-

Quant à Web, il semble que ce soit un emprunt destiné à rester isolé et à ne produire ni dérivés ni composée. Il faut reconaître en outre que des équivalents français plus transparents qui ont été proposés par remplacer Words Wide Web, comme système d'information planétaire, qui pouvait donner le sigle SIP, n'ont guère eu de succès jusqu'à présent.

Alors, pour désigner ce "système basé sur l'utilisation de l'hypertexte, qui permet la recherche d'information dans Internet, l'accès à cette information et sa visualisation", va pour W3 ou Web

Quelles Nouvelles ?

Une des raisons d'être du réseau Internet consite à faciliter et à multiplier les relations entre internautes. Il se forme donc quantités de groupes qui échangent informations et messages. Lorsqu'il s'agit d'un "regroupement d'internautes qui utilisent Internet pour échange en différé des propos sur des sujets communs", on l'appelle groupe de discussion, forum électronique, forum de discussion ou forum thématique. Il y a deux types de groupes de discussion : ceux qui utilisent le courrier électronique et ceux qui utilisent le réseau Usenet. Dans ce réseau, on parle ainsi de groupe de nouvelles Usenet, de groupe usenet, de forum usenet, ou de groupe de nouvelles tout court, ce qui équivaut à l'anglais newsgroup. Dans ces contextes, on n'a pas retenu le terme conférence, qui est soit imprécis, soit ambigu/

Avant de ce mêler à un groupe de discussion, une règle élémentaire de la nétiquette veut que les internautes novices se renseignent sur les sujets courants qui ont déjà fait l'objet de discussions dans le groupe. C'est pourquoi les internautes expérimentés montent des fichiers constitués d'ensemble de questions posées fréquemment par les néophytes ainsi que des réponses correspondantes. Ces fichiers facilitent l'intégration des cybernovices et diminuent le nombre de messages répétitifs et inutiles diffusés dans le réseau. En anglais, ce sont les Frequently Asked Questions files, ou FAO, c'est-à-dire, mot à mot "fichier de questions fréquemment posées". Pour éviter une formulation trop longue et trop descriptive, et pour conserver le même sigle en français, on les appelle foire aux questions, tout simplement.

Si on préfère échanger des idées sur un mode plus convivial et encore plus dynamique avec d'autres internautes, on peut se servir d'un forum de bavardage ou canal de bavardage. En effet, grâce à un logiciel de bavardage, le service de bavardage Internet permet une conversation intéractive en temps réel entre internautes. Service et logiciel de bavardage équivalent tous deux à l'anglais Internet Relay Chat ou IRC. Cette fonction fait participer les internautes à des discussions thématiques où leurs commentaires sont affichés simultanément sur l'écran de tous les autres participants. Les internautes peuvent ainsi tenir des sessions de bavardage, ou chat en anglais, ou des sessions de dialogue , ou interactive talk en anglais.

De toutes les façons, la parole est aux internautes !

***

ulaire d'Internet. Par exemple, quand on parle de site Internet, il s'agit d'"un lieu où se trouve implanté un hôte Internet (C'est -à-dire un ordinateur relié directement à Internet) et qui est identifié par une adresse Internet". Pour désigner le site Internet où sont stockées des données accessibles par W3, on emploie le terme site W3 ou site Web.

Chaque internaute a ses sites préférés, auxquels il retourne fréquemment. Pour lui en faciliter l'accès, il peut se servir de signets, : dans Internet, un signet, qui, somme dans le domaine du livre, se dit bookmark en anglais, est une "marque créée grâce à un article de menu, qui permet de conserver en mémoire la reférence à un document, une page ou un site que l'internaute juge intéressant et qu'il veut retrouver répidemment pour une consultation ultérieure".

L'ensemble des signets qu'un internaute compose pour son usage personnel constitue son carnet d'adresses ou sa liste privilégiée. En l'occurrence, des expressions comme livre de signets ou encore liste de signets, calquée sur l'anglais bookmark list, qui est le synonyme de hotlist, deviennent inutiles ; emmes ont aussi un caractère moins idiomatique et plus artificiel que carnet d'adresses.

En arrivant dans un site, on est, comme il se doit, accueilli par une page d'accueil. De préférence aux expressions page de bienvenue et page d'entrée, ce terme, qui est l'équivalent de home page, désigne la "première page qui est affichée à l'écran" et "qui contient une présentation du serveur W3 et d'autres informations sous forme d'images et de liens hypertextes ou hypermédias".

On sait qu'Internet est un immense réseau informatique. Plus précisément, c'est un ensemble de ressources textuelles, graphiques, sonores, vidéo, etc. organisées et indexées. Pour organiser ces ressources, on fait appel à différents systèmes, et pour accéder à ses ressources, on utilise divers outils de recherche. L'un des sytèmes les plus connus, qu'on qualifie de véritable univers multimédia, est désigné en anglais par l'expression World Wide Web, ce qu'on pourrait traduire mot à mot par quelque chose comme "toile de dimension mondiale". C'est, d'après Québec-Science un outil (je cite) "comparable à un immense dictionnaire indexé en mode hypertexte, (...) comportant quelque cinq millions de pages, reliées entre elles par des mots clés soulignés ou en caractères gras. En cliquant surl'un de ces mots, on passe à une autre page du dictionnaire, laquelle est aussi persemée de mots clés sur lesquels on clique pour passer à une autre page... et ainsi de suite. " (fin de citation).

L'expression World Wide Web étant assez longue, et les Américains raffolant des abréviations, on la voit le plus souvent, dans la documentation, écrite sous une forme raccourcie : WWW, Web ou W3/ En français, c'est ces deux dernières abréviations qu'on a empruntées, W3 et Web, et qu'on écrit avec un w majuscule, en leur donnant valeur de noms propres.

L'emprunt de la forme World Wide Web dans son entier et celle de WWW auraient évidemment été difficiles à intégrer sur le plan phonétique. En revanche, l'appellation W3 rappelle, par sa forme, d'autres appellations alphabétiques du genre G7 ou K2, qui sont cependant motivées différemment.

celui des sports nautiques. Naviguer, navigateur, navigation, surf, surfer, surfeur et surfeuse sont des termes courants lorsqu'il s'agit d'Internet.

Ainsi, le verbe naviguer signifie "utiliser Internet, l'explorer, y rechercher de l'information, particulièrement à partir d'un client w3 ou d'un client Gopher" (c'est-à-dire l'ensemble des logiciels d'application et l'ordinateur dont se servent les utilisateurs d'Internet). C'est l'équivalent français de to navigate ou to browse. Le verbe anglais to browse a notamment le sens de "feuilleter, fouiner, bouquiner", mais pour la terminologie d'Internet, on n'a pas retenu ces équivalents ni leurs dérivés. En revanche, on emploie parfois le verbe fureter dans ce sens, bien que cet usage puisse entraîner une certaine confusion.

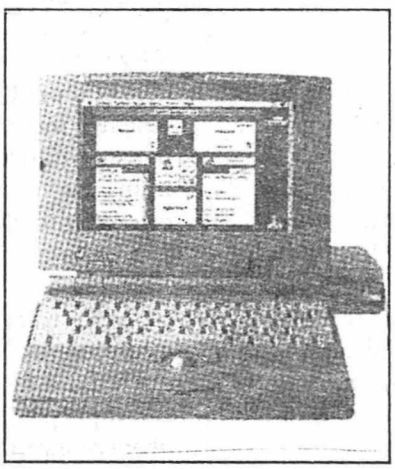

En effet, le furetage se définit comme une exploration non autorisée d'un ensemble de données stockées en mémoire et constitue de ce fait un délit informatique.

On dit aussi qu'on surfe dans Internet. Même si la différence entre les verbes naviguer et surfer dans Internet est assez subjective, surfer a plutôt le sens de "naviguer de façon plaisante".

Si les internautes naviguent, ils ne sont pas pour autant des navigateurs. Ce terme est réservé aux logiciels qui permettent la recherche d'informatique dans Internet, l'accès à cette information et sa visualisation grâce à différents systèmes . Ce sont les navigateurs W3 comme Mosaic et netscape qui sont les plus populaires actuellement. Les termes outil de navigation et logiciel de navigation sont des synonymes de navigateur et son tous des équivalents de l'anglais browser.

Quant à la navigation, c'est bien l'action accomplie par l'internaute, qui consiste à naviguer dans Internet. Il est sans doute préférable là aussi de parler de navigation plutôt que de furetage, et il est bon de savoir que faire du surf dans Internet évoque une activité moins sérieuse, à laquelle se livrent les surfeurs et les surfeuses.

Un petit rappel en terminant : comme Internet est un réseau dans lequel on pénètre, il vaut mieux dire qu'on navigue dans Internet, plutôt que sur. Et là on rejoint la langue de l'aéronautique et de l'astronautique : les avions naviguent dans ces couloirs aériens et les vaisseaux spatiaux se déplacent dans le cosmos.

Qu'on pense aussi à l'espace cybernétique dans lequel évoluent les internautes...

Pour se situer

Pour se situer dans le cyberespace, il faut avoir certains coordonnées, car les sites sont multiples. Le mot site, auquel on joint soit un qualificatif (comme dans site informatique), soit une apposition (comme dans site Gopher ou site serveur), soit encore un complément déterminatif (comme dans site d'archivage); est en effet d'un usage très fréquent dans le vocab-

Comprendre Internet

par : Brahim Ould Sidi

On peut utiliser l'Internet, pour ses activités professionnelles ou privées, sans savoir ce que ce terme recouvre.

Il n'y a pas une définition de l'Internet qui fasse l'unanimité et qui couvre en une phrase les différents aspects sous lesquels on peut le percecoir. C'est néanmoins une réalité avec plusieurs dizaines de millions d'utilisateurs, dont la majorité provient des mondes de la recherche et des universités.

Il y a Internet et internet

Qui pense à l'autoroute de l'information pense le plus souvent à l'Internet : on dirait même que ce mot est actuellement sur toutes les lèvres, sur celles des gens "branchés", en tout cas. Il désigne en effet un "réseau informatique mondial constitué d'un ensemble de réseaux nationaux, régionaux et privés, qui sont reliés par un même protocole de communication et qui coopèrent dans le but d'offrir une interface unique à leurs utilisateurs". Le nom Internet est une création américaine, l'élément net étant ici l'abréviation du mot network, qui a le sens de "réseau"; c'est la forme abrégée d'International Network ou d'interconnected Network. Depuis le début des années 80, Internet est en effet le nom propre du "réseau des réseaux" de téléinformatique mis sur pied, à l'origine, par des chercheurs rattachés au ministère américain de la Défense. Internet s'écrit donc avec une majuscule et on remarque qu'il est souvent précédé, en anglais, de l'article défini the.

Par ailleurs, le mot anglais internet peut aussi être un nom commun ; c'est l'abréviation du terme internetwork. Il s'écrit alors évidemment avec un i minuscule et il peut désigner tout "ensemble de réseaux informatiques reliées entre eux par un protocole de communication commun". Ce terme a un équivalent français qui est interréseau (avec deux r), et non pas, dans ce cas, internet.

En français, le nom propre Internet s'emploie de préférence sans article, ce qui est l'usage ordinaire en matière de noms propres, particulièrement de noms propres étrangers, désignant des réalités uniques : on parle donc du réseau Internet, on dit qu'on est branché au réseau Internet ou sur le réseau Internet, ou encore, lorsqu'on fait l'ellipse du mot réseau, qu'on navigue dans Internet, ou qu'on connaît tout sur Internet, ce qui ne peut être le fait que des "internautes" acharnés !

Naviguer

Comme leur nom l'indique, puisqu'en grec nautês signifie "navigateur", les internautes sont des gens qui naviguent. Et en effet, la terminologie de l'autoroute de l'information, qui emprunte à celle des transports terrestres, emprunte aussi au domaine maritime et à

Fin de la visite officielle du directeur général de l'UNESCO

L'importance de la diversité culturelle et linguistique, notamment dans le domaine éducatif, a été au cœur de la première visite officielle en Andorre du Directeur général de l'UNESCO, Federico Mayor.

Au cours de cette visite de deux jours qui a pris fin le 16 janvier, Federico Mayor s'est entretenu avec le Chef du gouvernement andorran, Marc Forné Molné, le ministre des Relations extérieures, Albert Pintat, le Président du Conseil Général (Parlement), Francesc Areny Casal, le ministre de l'Education, Carmen Sala Sansa, le ministre de l'Environnement et du Tourisme, Enric Pujal Areny, et le ministre de la Cultur, Pere-Canturry.

Le Directeur général a également participé à une réunion de travail avec les membres de la commission nationale d'Andorre pour l'UNESCO et à un hommage au photographe Valenti Claverol, aujourd'hui âgé de 95 ans.

En lui remettant la médaille Picasso, Federico Mayor a souligné le rôle de "mémoire du proche passé, dans un pays où n'existait pas encore de presse écrite", joué par ce grand photographe.

"Ce qui compte, ce n'est pas la taille d'un pays mais le talent de son peuple", a déclaré Federico Mayor qui s'est félicité de la contribution exemplaire d'Andorre aux idéaux de l'UNESCO. Evoquant notamment la réussite de l'école multilingue - une seule structure éducative où coexistent trois systèmes éducatifs (l'andorran, l'espagnol et le français), le Directeur général a souligné que ce petit pays qui a connu sept siècles sans affrontement fournissait un bel exemple de coexistence pacifique entre les langues et les cultures.

Appel à la mobilisation en faveur du mémorial de Gorée, au Sénégal

La Commission internationale spécialement créée à l'unitiative de l'UNESCO pour assurer la promotion du projet de Mémorial de Gorée a tenu sa première session à Dakar du 13 au 15 janvier. Elle a notamment défini les grandes étapes de la mise en œuvre du projet et lancé un appel à la communauté internationale pour qu'elle se mobilise autour de la réalisation du Mémorial qu'elle considère comme "un instrument de rapprochement des peuples et de rappel de l'exigence des droits de la personne humaine à l'aube du troisième millénaire".

La commission a invité le Directeur général de l'UNESCO, Federico Mayor, à sensibiliser les décideurs politiques , ainsi que les communautés scientifiques et intellectuelles, afin d'assurer au projet un grand rayonnement. Le monument dédié aux victimes de la Traite des Noirs sera érigé sur un terrain de 2,5 ha sur la corniche ouest, non loin du centre ville de Dakar.

" Lorsque le Mémorial se dressera face à l'océan et face aux Amériques, a déclaré le président Abdou Diouf en ouvrant les travaux de la Commission, nous entrerons dans le prochain millénaire avec une œuvre culturelle, artistique et architectural des plus significatives et digne d'appartenir au patrimoine mondial". Il a ajouté : "Gorée, carrefour de cultures et de civilisation porteuses d'un nouveau monde, symbolise aujourd'hui la conquête de la liberté pour nos peuples épris de justice et de progrès".

En marge des travaux de la Commission, le Président sénégalais a remis leurs récompenses aux trois lauréats du concours international d'architecture pour le Mémoral.

L'architecte italien Ottavio Di Blasi, dont le projet a été primé en septembre dernier par un Jury international, a reçu un chèque de 250.000 FF. Le deuxième prix a été décerné au projet des architectes In-Bo Shim, Hideyuki Yamashita et Alan Burden, installés à Séoul (République de Corée) ; le troisième prix a récompensé le cabinet Brandi et associés, de Cöttingen (Allemagne).

ture dans tous ses genres. La poésie, la nouvelle, la théâtre, le roman, et même la critique y trouvent leur place. Le lecteur accomplit donc un survol de la production littéraire. Il reste bien sûr sur sa soif. parce que les 250 pages de "Wassit" ne font que brosser superficiellement un panorama de la littérature mauritanienne. C'est d'ailleurs la seule mission que s'est fixée l'ouvrage : donner un aperçu de l'écrit mauritanien d'aujourd'hui.

On retrouve bien sûr les noms les plus connus : Ahmedou Ould Abdel Kader, Moussa Ould Ebnou, Batte Mint El Bara, Nagi Mohamed Limam, Khadijétou Mint Abdel Hay, Ennahoui et bien d'autres. On n'y rencontre aussi quelques écrivains très mal connus et qui mériteraient de l'être.

Sur l'ouvrage plane évidemment la suprématie du poème. C'est le genre le plus ancien en Mauritanie : 3 siècles au moins de présence alors que le roman, lui date de 1981. Nous sommes pourrait-on dire une société irréductiblement poète. "Le pays du million de poètes". Seulement notre poésie arrive difficilement à se faire une place dans l'environnement arabe.

Pourquoi ? Parce que je crois, nos poètes s'aggripent trop à l'ancien, parce qu'ils n'osent pas, parce qu'ils se contentent de s'inscrire dans une vieille lignée des centenaires tendances poétiques. De l'ancien on ne fait même pas du nouveau. On l'adapte; c'est tout. Sans innovation, sans ruptures, sans révolutions, on n'avance pas, on ne crée pas. De notre environnement culturel pourtant unique, nous n'avons pas su encore faire naître une forme poétique qui est nôtre. Nous n'avons pas encore fait ressortir notre différence, qui est richesse. On copie ces bons écrivains d'Orient. Mais nous ne sommes pas l'Orient. Et c'est pourquoi nos poètes en langue arabe classique sont tout, sauf populaires. Trop détachés de leur propre société, ils n'ont pas su produire quelque chose d'original qui les enracinerait dans leur propre être culturel et qui en même temps leur offrirait un plus à apporter à la littérature arabe et universelle.

Ne brossons pourtant pas la situation tout en noir. Au fil des pages du "Wassit nous découvrons de suaves écrits, des écrivains dont le génie en sommeil, attend l'impulsion .Qui sera la leur donner ? Eux même uniquement. S'ils se défient de leurs vieilles utopies littératures, s'ils apprennent à piétiner les dogmatismes, s'ils ne mettent à l'école de leurs propes racines.

Le nouveau "Wassitt", ou la littérature mauritanienne d'aujourd'hui

"Avez-vous lu Confucius" Moubaraka Mint Bara,

poétesse, a raconté la rencontre de la Commission de la Culture avec le chef de l'Etat mauritanien. "Avez-vous lu Confucius" leur a-t-il demandé avant de leur dire "celui qui n'a pas lu Confucius ne saurait comprendre la Chine. Et c'est cela qu'on devrait dire de vous : celui qui n'aura pas lu vos publications ne comprendra pas la Mauritanie".

La Commission Nationale chargée de recueillir et de publier les œuvres culturelles de la Mauritanie mène un travail remarquable et qui n'a pas encore reçu l'écho qu'il mérite. Présidée par l'écrivain Moussa Ould Ebnou, elle a déja publié deux recueils de proverbes et adages populaires. Dans le sillage de Sidi Ahmed Ben Ebnou, qui publia en 1991 au Caire, le premier ouvrage portant sur la poésie Chinguittienne, elle a donné naissance à un autre "Wassit", celui de la littérature mauritanienne d'aujourd'hui. L'effort mérite d'être salué. D'autant plus que notre littérature a assez souffert de l'oubli. Les poètes de la Mauritanie profonde, coupés du monde de l'édition et des cercles littéraires voient leurs œuvres rayées très souvent de la mémoire et du temps. Le "Wassit" de 1911, a repris quelques fragments des poètes les plus connus de ce temps, combien d'autres, peut-être plus géniaux sont restés dans l'annonymat ? Ni la mémoire; ni les vieux manuscrits, ne sont des gardiens fiables de la production littérature. Seule l'édition pourrait sauvegarder durablement la culture nationale. C'est ce que la Commission Nationnale a compris, et c'est ce qu'elle tâche d'accomplir. C'est en soi une haute mission.

Le recueil publié s'essaye à embrasser la production littéra-

aimables. Du Lieutenant Violet tué au combat de Ksair Terchan, en Janvier 1909, et qui repose au cimétière français d'Atar, le Général Gouraud écrit dans ses mémoires : "Il était brave et chevaleresque et beau comme un jeune chef maure".

Difficile de trouver sous d'autres cieux le chef d'une légion d'occupation parler ainsi de ses sujets, à fortiori de ses adversaires de combat...

La Mauritanie se rappelle de son histoire, pas seulement pour pleurer sur

quelque splendeur d'antan, mais pour utiliser le passé afin de réaliser les grandes choses à l'avenir. Elle n'abandonne pas l'ambition de conserver son identité et son héritage pluriséculaire, ou plus récent, tout en vivant son époque et en préparant son peuple à vivre correctement au XXI - ème siècle. Nous voulons atteindre les cimes, mais seulement en adaptant nos valeurs de civilisation aux exigences du millénaire prochain : la science, la démocratie et les libertés fondamentales, la solidarité nationale mais aussi l'indispensable interdépendance des peuples, des continents et des familles civilisationnelles... En d'autres termes nous entrerons en le siècle et millenaire prochains armés de la science et de la technologie ; adeptes du progrès social et des droits de l'homme, de l'animal et de la plante. Nous y allons aussi en arborant bien haut notre foi et en gardant notre boubou, notre voile, notre case, notre tente, nos poésies et musiques, bref toutes nos couleurs et "le souvenir des pères de nos pères".

Pays bien atypique, à plus d'un titre, la Mauritanie consciente de tout cela et malgré sa familiarisation en un temps fulgurant avec les conditions politiques, morales et structurelles de la mondialisation, restera toujours pour l'étranger quelque chose d'insaisissable, de barbare... car comme le dit Montaigne : "chacun appelle barbarie ce qui n'est pas de son usage". Nous sommes différents, loin de l'usage de bien de nations. Mais nous nous assumons. Nous sommes à l'aise dans nos identités ethnique, culturelle, nationale et civilisationnelle, mais sans chauvinisme aucun ni traumatisme. En même temps nous restons fidèles à nos amis.

Cette acceptation entière de soi et cette constance vis à vis de l'amitié doivent bien s'appeler le bonheur...

Sur vous le salut et la bénédiction d'Allah.

librement sur la voie publique narguant les passants poliçant même quelque fois la circulation routière des ex-chameliers que nous sommes toujours ? Comme le "Mehboul" des villages de nos cousins d'Afrique du Nord on apprend souvent par leur intermédiaire les vérités que les serviteurs raisonnables d'Allah taisent par pudeur ou par calcul. Et ils sont si peu violents, les handicapés du désert.

Nous avons compté pour la littérature. Pas pour les "contes" de fées et la comédie à d'autres. Nous "laissons les titres de fantaisie, les marquis de carabas ou les grands mamouchis... "Nous avons compté pour le roman et les récits d'aventures. Parce que nous les "Maures... (sommes) des adversaires sérieux" suivant l'hommage du général Gouraud conquérant de l'Adrar et qui, entre autres fonctions occupa celles de gouverneur militaire de Paris et de pro-consul au Levant. Plus d'un autre surdoué de la plume a été séduit par la Mauritanie et les mauritaniens, y consacrant qui, un roman à large succès, qui un récit d'aventures de qualité. Nous citerons, sans être exhaustifs, pour le roman : Frisson-Roche, Joseph Kessel, Pierre Loti, Joseph Peyré etc, et pour les récits d'aventure : René Caillé, (le Ould Keyjé des maures explorateur de Tombouctou), Michel Vieuchange, le visiteur de Smara, Camille Douls, Léopold Panet, notre "cousin" du Sénégal etc.

Sur un autre plan le peintre Gericault et son "Radeau dela Meduse" s'inspire de la catastrophe du bateau qui coula en 1816 en face de notre littoral atlantique. Plus tard des dizaines de peintres surtout des femmes (Marion Senones, Odette Du Puigaudeau, Myrtho Debard etc.) fixeront pour l'éternité des scène de notre vie rustique. Enfin le Général Charles Diego Brosset, tombé à Belfort le 20 Novembre 1944, et que le Président Français Jacques Chirac à 12 ans rencontra au Bayol, a écrit un des meilleurs romans inspirés par le pays : "un homme sans l'occident". Permettez moi de me contenter de citer la note de présentation du livre publié par les éditions de Minuit : "...Cet homme extraordinaire au cerveau délié, au corps puissant, cet ethnologue, ce diplomate possèdait au surplus un don d'écrivain qui s'épanouit dans les pages de ce volume. Ce "roman saharien" est un peu une provocation et une profession de foi. Une provocation car il nous donne d'un Sahara légendaire... une image imprimée qui s'inscrit en faux contre celle qu'a fixée dans l'esprit du lecteur français toute une littérature saharienne... une profession de foi car ce qui éclate ici c'est un amour profond des hommes. "... Mais aussi de chaque homme dans sa réalité charnelle et morale... "Qu'il soit né en Bretagne, en Sicile ou en Adrar, il s'agit de retouver d'abord un homme et le héros de ce livre, ce Sid'Ahmed noble et sauvage, fier et parfois cruel, honnête, méprisant la mort, mais aussi sujet d'humaines faiblesses, Charles Diégo le fait vivre devant nous en évitant tout romantisme, tout exotisme de pacotille..;"

Après cet émouvant et bien mérité panégyrique du Général Brosset plus rien à ajouter et nous fermons la longue liste de nos témoins

Que dire en effet après ce long itinéraire ? Que la colonisation ici est inconnue. C'est là une lapalissade. Ils sont venus en étrangers, avec résidence provisoire.

Pour la plupart leurs représentants, civils et militaires, étonnés par le haut niveau de notre savoir intellectuel, les subtilités de notre langue, le charme secret de notre mode de vie, au delà de sa rigueur, ont adopté nos manières et assimilé notre langue. Nous n'étions pas seulement des égaux, des gens fréquentables, mais même quelque fois des exemples

d'un agnostique au contact de l'ésotérisme musulman en Mauritanie qui peut encore s'étonner de la vivacité de notre foi et même de notre "fanatisme" ?

On vous dira encore, que nous somme une société tribale sans cohésion et peut être même sans conscience nationale. Mais entendons nous bien sur le terme tribu" avant de nous gargariser du mot. Le Larousse n'efface pas la confusion : "groupement de familles homogènes aux plans linguistique, politique, social et culturel que certains considèrent comme une subdivision d'une ethnie et d'autres comme équivalent de l'ethnie".

En tout cas, tribu chez nous n'est pas la commnauté quasi indépendante et que la configuration particulière des zones forestières, comme au Congo, en Amazonie ou en Indochine transforme en véritables nations aux parlers distincts aux coutumes différentes vivant en isolat absolu...

Ici la tribu maure, le "Yettodé" pulaar ou le clan soninké, c'est la famille élargie, un simple repère pour se remémorer le passé Rachid Mimouni croit que : "si l'on ne préserve pas sa mémoire historique, peut être s'engloutira notre passé et le souvenir des pères de nos pères..." (l'honneur de la tribu). Tribu ici comme le yettodé et le clan c'est une solidarité, tant qu'un cadre adéquat ne vient combler le besoin en "Assabiye" d'Ibn khaldoun, (ce génial créateur de la sociologie de l'histoire), qu'une sociologue française spécialiste des maures R'gaybat, Mme Sophie Caratini, traduit par: "à chaque niveau d'appartenance correspond un réseau de solidarités et de rivalités". En effet, la tribu sert avons nous dit de simple repére. Et l'homme sans repère expérimente forcément une terrible détresse. M Lassale, jeune chercheur français à propos d'une caste de soninké Mauritaniens constate amer "le lien qui m'attachait à mes ancêtres etait bien plus ténu que celui du plus modeste ces forgerons soninkés. Ce constat devrait nous faire prendre conscience de notre fragilité de "développé"... Sans racines profondes, notre vie tendrait a n'être qu'une fuite vers un futur préoccupant. Pour nous repérer inconsciemment, nous venons chercher des jalons rassurants chez ceux qui avaient eu la sagesse de préserver leur passé.. ". C'est joliment bien dit. La tribu, en réalité ne peut et ne doit jouer aucun rôle politique. Sa fonction première est de baliser les repères, maintenir les solidarités, préserver le passé.

En 1989, lors d'une malencontreuse crise, aujourd'hui dépassée, 260.000 mauritaniens, plus des 10 % de notre population nationale est venue, en moins de 45 jours, accentuer le problème déjà difficile de la gestion de notre quotidien. Grâce à la chaine de solidarités, ils ont emprunté des filières parentales de la famille élargie soulageant remarquablement les pouvoirs publics. Ce côté positif peut être maintenu, devra l'être après l'élimination du népotisme, du caractère centrifuge de la tribu et de ses autres aspects détestable... En tout état de cause tribus et ethnies existent en ce pays, mais notre conscience de solidarité nationale est encore plus forte et c'est ce qui explique la volonté de tous d'arriver toujours à un compromis pour préserver le toit commun. Il n'existe aucune vieille personne dans les hospices, parce que les maisons de retraites n'existent pas et que personne en vérité n'acceptera de mettre son patriarche, sa vieille tante ou sa belle mère chez quelqu'un d'autre. Ici le partage et la convivialité font partie de nos us et coûtumes. Et avoir un vieillard chez soi est souvent synonyme de grâce divine, de chance, de fierté même... Outre signe de solidarité...

Nos malades mentaux se promènent

précoce, combien vive notre sympathie réciproque, combien l'acceptation sans arrière pensée de nos différences, l'attrait de chacun pour la culture de l'autre ont été une donnée permanente des rapports franco-mauritaniens depuis près d'un siècle..."

Après notre auto-portrait et les morceaux choisis de tant de témoins privilégiés, les confectionneurs de réputations qu'aucune preuve ne vient conforter et autres spécialistes de l'analyse rapide et des conclusions superficielles ne manquent jamais d'affubler la Mauritanie de plus d'un cliché totalement erroné. Certains nous "collent" l'étiquette de "fanatiques" usant à l'occasion d'un mot qui pêche tant par l'ambiguité.

Ici tout le monde, moi le premier, affiche fièrement son fanatisme, sans préjugés, sans agressivité et, surtout, sans l'intention de porter atteinte aux droits et crédo de l'autre. Entendons nous bien "fanatisme" pour nous c'est l'attachement quasi - physique, passionné en tout cas, à notre religion et croyances.

Nous le sommes avec la certitude d'être sur la bonne voie mais sans aucune forme d'intolérance. Simplement, face à ceux qui utilisent l'islam, le christianisme, l'hindouisme, le judaisme ou l'athéisme à des fins polifiques exclusivistes nous appliquons le précepte islamique qui commande : "La Ikraha Fi DINI" (pas de coercition en matière religieuse).

Certes notre vie est réglée par la foi. La foi réglemente aussi nos rapports avec l'autre, les lois du commerce, ceux de l'héritage, le comportement à l'égard du voisin, du mendiant de l'étranger, de l'exclu... Le code moral de l'Islam explique toute notre sérénité. L'incompréhension avec athées et agnostiques provient de leur entêtement à vouloir nous faire abandonner notre crédo pour le leur qui est une autre forme de religion : la non-religion.

Robert Arnaud, français d'Algérie, compagnon de Xavier Coppolani expliquant la mésentente réciproque entre certains laics et les populations de Mauritanie écrivait en 1906 : "l'admirable simplicité de l'Islam due à une théologie qu'une seule phrase, proclamant l'unicité divine résume, s'oppose à l'infini complexité de notre société moderne... Pour eux (les Musulmans) Dieu est la base de la création du monde et nous, nous créons et supprimons Dieu au fur et à mesure de nos besoins". De là à nous accuser de fanatisme, "il n'y a pas de quoi fouetter un chat"...

D'autant que la terre, notre terre elle-même ; notre environnement tout entier pousse l'être à cette transcendance, au spiritualisme, à l'écoute de l'invisible comme le soulignait tantôt Saint Exupéry. Un autre, le Psichari rappelé par le Colonel Claudel, petit fils d'Ernest Renan, reconverti au christianisme en Mauritanie où il servit entre 1910 et 1912, après avoir entendu des "voix qui crient dans le désert" (titre de l'un de ses livres en référence aux paroles de Saint Jean Baptiste) a été obsédé par la présence de Dieu dans nos oasis. Parlant de celui d'Atar, il constate : "et puis tous ces palmiers moles et graciles forment un décor de plaisir où le cœur s'alanguit, s'abandonne vite...".

De Chinguetti, envieux sans doute, il s'exclame : "ainsi donc au fond du désert en pleine désolation s'élève une ville de prière, une cité de Dieu, battue de tous les vents et qui, rejetée des jardins de la terre, est allée rejoindre le ciel..." . Devant le trouble et l'incrédulité puis la conversion miraculeuse au catholicisme

bien contraint de reconnaitre, puisque la vie intérieure, loin de s'y endormir, s'y fortifie, que l'homme est d'abord animé par des sollicitations invisibles, l'homme est gouverné par l'esprit..." Je ne doute pas que pour Saint Exupéry qui a vu tant de choses et a entendu mille autres au le désert, lui inspirant des pages succulentes, ce sont les richesses "intangibles" (il le sous-entend) qui sont à l'origine de l'esprit qui prédomine en les contrées désertiques et singulièrement dans notre "coin du cosmos". Par delà la différence et même les antagonismes,et parce que ces richesses sont ce que l'homme possède d'immable et d'essentiel, elles auront permis aux "colonisés" et "colonisateurs" en Mauritanie de dialoguer sur un même pied d'égalité, en toute convivialité, sans rancune!..

Le troisième à la barre, sera une femme, Madame odette du Puigaudeau qui a consacré à la Mauritanie et à l'ensemble Hassanophone, c'est à dire les maures en général, pas moins de 7 ouvrages de lecture générale appréciés (deux viennent d'être reédités) en plus de centaines d'articles dont des études pertinentes et fort savantes;

Odette de Puigandeau nous revèle avec une extraordinaire capacité d'observation (Je devrais dire par une singulière introspection tant cette bretonne s'est littéralement fondue en nous, a pénétré insidieusement notre âme profonde) sa connaissance et de la courtoisie et de la société maures.

C'est dit-elle une "société qui aime sa liberté, jusqu'à l'anarchie... De toute sa vie un homme ne se montrera pas avec sa femme, ne cajolera pas son enfant, ne mangera, ne fumera, n'élevera pas la voix devant son père, son oncle, son frère ainé ou son professeur, formalisme dira-t-on. Non celà c'est la hachouma musulmane, un sentiment mêlé de respect, de pudeur et de honte, la conscience des préeminences des valeurs, de la place qu'on occupe dans la hiérarchie universelle".

La citation est tirée du marveilleux livre "Tagant" écrit par cette globetrotter entre 1935 et 1938. Depuis, et malgré le formidable bond fait par notre société dans le siècle et malgré des entorses répétées et regrettables aux bonnes traditions, la constatation de Madame du Puigaudeau n'a pas subi beaucoup de rides.

Un autre témoignage provient d'un magistrat en charge, en 1958, de la circonscription d'Atar qui avait, à l'époque, juridiction sur tout le Nord Mauritanien.

Au sujet des Maures, le juge Leportier écrit donc "... Vis à vis des Européens, aucun complexe, on les regarde comme des égaux et si on se permet de les mépriser un peu en leur qualité d'infidèles (koufars) on les admire pour leurs réalisations matérielles. L'un compense l'autre. On est différent mais dans l'égalité. Aucun désir d'asimilation, on ne cherche pas à imiter l'européen, chacun sa manière, Dieu jugera. On garde son costume et ses coutumes et le titre de citoyen si recherché plus au sud, n'est ici qu'une parure exotique dont on sourit sans trop y croire et qu'on exhibe un moment que quand il y va d'un quelconque intérêt. On est arabe de la race du Prophète, qu'ajoute à cela cette histoire de citoyenneté ? "Beaucoup se disent amis de la France, aucun ne se dit français".

A propos de cette abondante littérature française traitant de la Mauritanie, M. Pierre Messmer qui a été commandant de cercle de l'Adrar gouverneur de Mauritanie et Haut-commissaire en Afrique occidentale Française assure : "Ces écrits qui révèlent combien notre complicité (dans le bon sens du mot) a été

(c'est bien de partenariat qu'il s'agit) du droit de l'autre à la différence et de l'indiscutable attrait de chacun pour la culture de l'autre. Malgré ou plutôt à cause du fossé philosophique, mauritaniens et français se sont mutuellement estimés et ont entretenu un "dialogue" intellectuel des plus surprenants et des plus fertiles;

Le Général De Gaulle a visité la Mauritanie à trois reprises (record sans doute, l'Algérie mise à part). Atar, il y a quarante ans a été une étape de l'itineraire. Avec sa proverbiale intuition inégalée, il sentit que notre peuple, en plus de son sens de l'hospitalité et de la tolérance reste très différent, comme isolé de ses voisins septentrionaux et méridionaux. Il nous gratifia, dans son ouvrage "le renouveau", d'une de ses formules à l'emporte-pièce d'une justesse de jugement de devin : "..la fière solitude du peuple mauritanien".

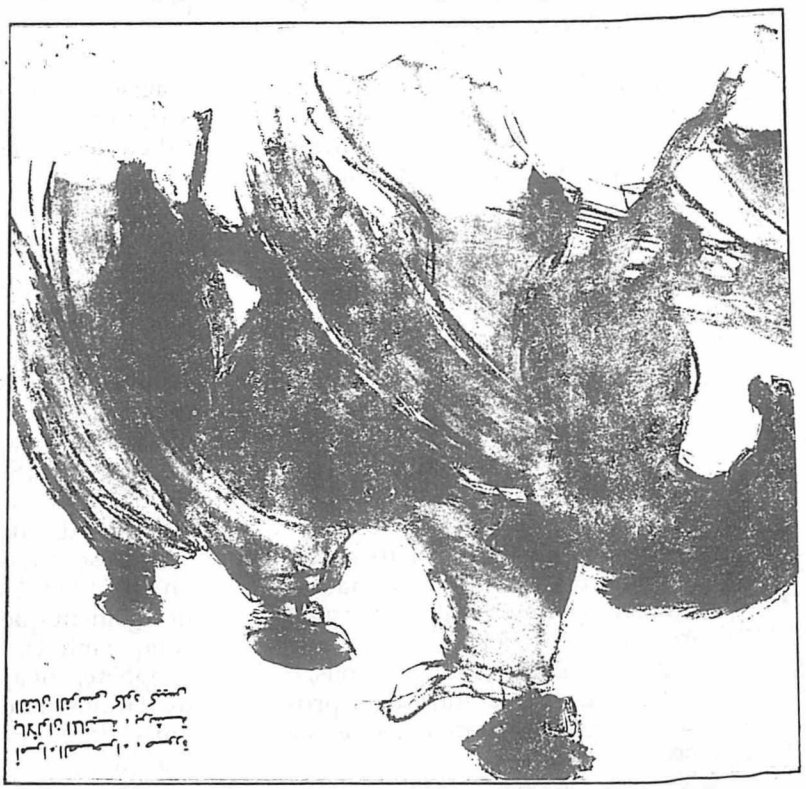

J'ai sélectionné, à la suite du chef de la France libre, les opinions de nombreux français qui avec étonnante perspicacité et souvent avec sympathie ont décrit notre pays et les mœurs de ses habitants.

Henri Claudel, ancien commandant du bataillon de Mauritanie à l'occupation de l'Adrar écrit en la préface d'un ouvrage sur la Mauritanie : "Pour nous soldats, la Mauritanie a été plus que toute autre terre, terre d'héroisme. Elle a inspiré Psichari. Elle a suscité chez nos cadres européens les vertus de courage d'endurance et de dévouement qui font la force d'une armée et d'une race, et c'est pourquoi nous l'aimons".

Notre deuxième témoin sera Antoine de Saint-Espéry qui a connu et aimé le Sahara Atlantique depuis Cap JUby (notre Tarfaya), jusqu'à Saint-Louis du sénégal. Nos immensités lui ont inspiré ses meilleurs textes. Dans son menu opuscule intitulé "lettre à un otage", paru en 1944 à la veille de sa mystérieuse disparition, l'auteur de "Terre des Hommes" note : "... Et comme le désert n'offre aucune richesse tangible, comme il n'est rien à voir, ou à entendre dans le désert, on est

douf en Algérie, Tombouctou au Mali. Longtemps nos savants, mais aussi nos pélerins et même quelquefois, nos aventuriers peu scrupuleux, arboraient avec fierté cette identité de "Chenaghita" qui était synonyme de savoir et de pieté. Nos savants en Egypte et en Arabie Saoudite en raison de leurs vastes connaissances de la langue et grammaire arabes, sciences du coran, traditions saintes etc., ont été exegétes appréciés des recueils poétiques anté - islamiques, traités de droit traditions du Prophète, dictionnaires etc. Aujourd'hui encore des milliers de policiers aux Emirats et des centaines de Magistrats et de professeurs en Arabie Saoudite, aux Emirats, Koweit, Quatar etc. perpétuent le prestige d'érudition des Chenaghita.

Il faut souligner que la qualité du savoir traditionnel mauritanien est le produit de la conjonction de trois éléments providentiels incomparables : des maîtres à la mémoire phénoménale et à l'érudition encyclopédique ; des bibliothèques nombreuses, de qualité, et se renouvelant sans cesse ; une gratuité entretenue par une chaine de mécénes. Nos Mahadra, ces véritables universités (dans le sens premier du terme qui est, ne l'oublions pas, la traduction littérale d'"El Jameh" arabe, la mosquée qui était lieu de prière et d'enseignement universel), sont l'unique foyer intellectuel de très haut niveau de toutes les zones arides nomades de la planète.

Autre caractéristique du pays ; la pratique constante et avec bonheur de la prosodie. En effet en plus du bon sens, la chose la mieux répartie en Mauritanie est l'art de réciter et de composer des vers. Tout le monde s'y adonne. Le lettré, le guerrier ou le berger... les érudits versifent en arabe classique le plus souvent ; tout le monde compose en arabe mauritanien des poèmes d'excellente facture ; tandis que les courts quatrains sont l'apanage préféré des dames.

Sur ma lancée je me sens obligé de dire quelques mots de notre musique et de notre artisanat. Les musiques traditionnelles mauritaniennes sont parfaitement jumelles pour les instruments et les tons. Ces musiques maure, pulaar et soninké donnent une nouvelle preuve du long passé d'échanges et de brassages entre nos trois communautés socio-culturelles. La musique maure, elle même, est une synthèse parfaite des emprunts à nos deux mondes complémentaires : l'Afrique profonde et la civilisation arabo-musulmane.

Savante, la musique maure avec mélodies, codes et règles strictes constitue, par ailleurs, un signe de ralliement pour tous nos frères culturels hassanophones à l'intérieur et à l'extérieur de nos frontières internationales. Notre artisanat, autre élément de fierté et d'originalité, est le fruit de techniques se transmettant, le plus souvent, de père en fils et de mère en fille et constituait jusqu'à une date récente le pourvoyeur de notre société pour l'habitat (tentes) le mobilier (tapis, nattes, couvertures etc.) les habits, les harnachements, les ustensiles, les outils etc. Assassiné comme ceux d'autres sociétés traditionnelles par la hideuse production industrielle, l'artisanat est devenu simple produit de musée ou d'articles pour touriste. Pourtant l'ingéniosité, l'esprit de progrés technologique et industriel de notre société, sont encore capables de servir le progrés technologique de notre société mais il ne sert à rien de gémir : "Nous sommes à Allah et à lui nous retournerons".

La présence, quelque cinq décades, des français en Mauritanie s'est caractérisée, par des rapports d'égalité uniques dans toute l'histoire coloniale, l'acceptation, par chaque partenaire

leur dégré de pigmentation cutanée. Même méprise pour désigner nos autres compatriotes et cousins. On appelle "Toucouleurs" et Peulhs" ceux qui d'un nom générique se reconnaissent "halpoular" c'est à dire "ceux qui parlent poular" ou langue des peulhs, Foulbé ou Foulah ou Foulani. Ces populations venues de l'Est seraient originaires de la vallé du Nil ce réservoir de tant de peuples hamitiques quand ils ne se réclament pas d'ancêtres émigrés de la péninsule des arabes

Autre quiproqo, la troisième ethnie du pays par l'importance numérique est connue des Français mais aussi des Maures et des halpoulars sous la dénomination "saracollé". Eux se désignent comme "soninké" sous-division linguistique du grand groupe Manding qui domine de larges contrées au Mali et en Guinée notamment. "Saracollé" ou "homme blanc" en leur langue désignant sans doute les Maures et autres genres de race blanche.

Pourtant, à part les personnes exagérement typées, (une minorité) la complexion générale des mauritaniens, toutes races et ethnies confondues, est si rapprochée que les "noirs et les "blancs" peuvent sembler d'une même origine. En effet, chez nous, la couleur n'est pas toujours un élément de référence raciale encore moins de position sociale. Vous verrez des émirs d'origine arabe dont la couleur ébène dément les gênes ancestraux. Vous verrez également des ex-tributaires, aux cheveux roux et aux yeux bleux suggérant quelque parenté avec les vikings.

Multiéthnique et biraciale donc la Mauritanie regroupe les trois communautés et une quatrième, plus répandue au Sénégal : les Wolof. Toutes ces communautés se retrouvent en un dense réseau de liens qui remontent à plusieurs siècles, plus précisément au moyen-âge ou même antérieurement.

Cette symbiose s'est faite au sein d'empires successifs qui ont fleuri sur notre terre.

L'empire du Ghana (III - XII siècle), dont l'emplacement de la capitale, Kombi-Saleh, a été découvert il y a quelques décades, dans l'Est mauritanien, est essentiellement soninkophone. Son nom désigne maintenant le premier Etat noir africain ayant recouvert son indépendance en 1957 : l'ancienne Gold Coast.

L'empire Almoravide (1061-1147) produit de l'effervescence mystique des moines- soldats berbères Sanhadja et qui pris son élan d'Azougui à 8 km à l'Ouest d'Atar.

L'empire du Tékrour (XV- E s) royaume berbère et noir qui s'étendait en particulier jusqu'à la ville mythique de Tombouctou. Plus tard la République théocratique du Fouta dans la vallée mauritano-sénégalaise du fleuve Sénégal, et les Emirats séculiers Maures, que Faidherbe désignera par "Etats maures riverains du fleuve", donneront à la Mauritanie sa configuration géographique et ethnique actuelle.

Un autre nom, avant de fermer cette parenthèse, mérite d'être rappelé, celui de "Bilad" Chinguett", littérallement "pays de Chinguett". Comme Aljezair, Tounes ou Marrakch, le pays était connu du monde extérieur par le nom de sa ville la plus célèbre. La ville de Chinguetti, à 80 km à l'Est d'Atar était le lieu de rassemblement des pélerins de tout le Sahara occidental (au point de vue géographique) des Maures. Il servira longtemps (et sert encore) de reférence et d'identité aux arabophones dit encore hassanophones (la tribu arabe des Beni Hassan a donné son nom à l'Arabe parlé mauritanien dit Hassania) de l'actuelle Mauritanie, du Sahara ex-Espagnol et des régions de Goulimine au Maroc, Tin-

Si la Mauritanie m'était contée

Par Mohamed Saïd Ould Hamody
Hommedelettres,
Ambassadeur

Contrairement à celui de "pays maures" usité longtemps par les chancelleries européennes ou celui de "Trab El Bidhane" 'terre des blancs) d'une usage strictement local, le nom du pays, est d'affectation récente chez nous. Il date de décembre 1899 lorsque Xavier Coppolani, premier commissaire du gouvernement préparait un arrêté créant et délimitant la possesion française de "Mauritanie occidentale" qui englobait " les terres s'étendant de la rive droite du Sénégal et des régions comprises entre kayes et Tombouctou au Cap Juby à l'Ouest c'est-à dire jusqu'aux confins du Maroc et au Nord, jusqu'au Sud Algérien" (c'est le libellé exact du projet d'arrêté)

Le projet n'aboutit jamais politiquement en raison des humeurs de l'Espagne et des manigances de l'Angleterre. Mais il reste, néanmoins une réalité culturelle même si les territoires ciblés à l'époque couvraient seulement une partie du pays maure. Et en consolation il nous est resté le nom de "Mauritanie" . Ce nom ressuscite celui d'un royaume berbère vassalisé par Rome au premier siècle de l'ère chrétienne et divisé en Mauritanie césarienne et Mauritanie Tingitane. On nous appelle les "Maures". Le savant pluridisciplinaire et bientôt centenaire Théodore Monod "mauritanologue", s'il en est, nous décrit comme "être divers, multiples, déchirés, illogiques plus simplement humains".

Déjà l'occident chrétien a collé aux Arabe d'Espagne cette dénomination de maures avant de l'affecter aux habitants du Maroc et de l'Algérie. A nous le terme a été octroyé au XVème siècle par les premiers navigateurs européens sur nos côtes, en l'occurrence les portugais. Nous ne reconnaissons pas le vocable. Les chrétiens ne connaissent pas non plus, celui que nous leur avons octroyés avec la même générosité : les Nazaréens, ceux de Nazareth. Cette ville, palestinenne de galilée, patrie de Jésus-christ (sur lui le salut et la paix) symbolise la chrétienté. Et pour un maure tous les habitans de continent sont forcément des chrétiens, des Nazaréens.

Pour nous l'athéisme est impensable et les juifs ne peuvent être européens dans notre imagination. Souvenir peut être de leur expulsion brutale, avec nous, en 1492 d'Andalousie...

Et parce que, jusqu'à une date récente, ils étaient en Europe, "l'autre", "l'exclu", l'étranger"...

Nous nous sommes auto-dénommées "Bidhane", sans égard aucun pour nos dégrés respectifs de pigmentation de peau . En effet étymologiquement Bidhane veut dire "blancs". On use aussi d'une euphémisme "soudane" littéralemeent les noirs pour désigner les arabophones et hassanophones (les deux termes sont presque équivalents) qui sont d'origine raciale, proche ou éloignée, négro-africaine : les Maures noirs, sans égard, non plus, pour

EDITORIAL

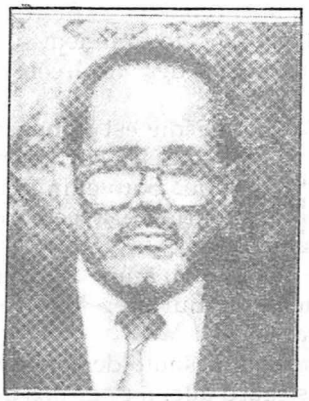

Ely Ould Boubouth

Secretaire Général de la Commission Nationale de l'Education, la Science et la Culture

Vous avez entre les mains notre premier numéro de l'année 1998. L'année qui s'est ecoulée a vu notre revue s'interresser à différents domaines culturels artistiques, scientifiques, des segments du savoir où des intellectuels et des chercheurs mauritaniens arabes et étrangers se sont engagés avec passion et amour de la vérité. Nous les remercions sincérement de leur efforts qui ont largement contribué à faire d'"El Mawqeb" une revue culturelle qui allie la diversité à la rigueur scientifique. Nous les assurons également de notre volonté à faire de cette revue une tribune qui chaque jour se perfectionne afin d'offrir aux intellectuels, aux savants, aux artistes un instrument culturel fiable du point de vue déontologique et scientifique.

Nous tenons particulierement à ces trois options qui, de notre avis, sont les conditions essentielles pour le succès de notre oeuvre.

- **La crédibilité.** Il s'agit pour nous d'adopter une ligne redactionnelle qui assure la viabilité scientifique à ce que nous publions. "Al Mawqeb" exige de ses collaborateurs une approche faite d'objectivité et de sens de la methodologie qui donne à tous les articles que nous publions un cachet de rigueur, aussi bien dans le fond que dans la forme.
- **l'authenticité.** "Al Mawqeb" s'attèle à faire découvrir ce que la culture de notre peuple recéle d'originalité et de finesse. Il s'agit ici d'une part essentielle de nous-même et qui forme la trame même de notre vécu culturel. El Mawqeb se veut le moteur d'une redécouverte de notre patrimoine et d'une relecture de notre culture saharienne qui a su accompagner l'homme mauritanien, en proie aux vicissitudes d'un environnement desertique
- **La modernité.** Aller avec son siècle, tel est notre leitmotiv. Nous voulons accompagner le progrès technique en publiant à chaque fois articles et refléxions sur les innovations d'aujourd'hui.

Ce parti-pris fait d'adhésion à ce que nous sommes et de projection resolue dans l'avenir, nous le puisons dans cet enseignement qu'est l'action quotidienne du Président de la République Maaouiya O/ Sid'Ahmed Taya. Nous avons de devoir de continuer sur cette voie. Nous en avons aussi la ferme intention.

Je tiens enfin, à remercier tous ceux qui ont, de près ou de loin, contribué à la naissance et à l'essor de cette revue. Je tiens aussi à les conforter quant à notre ambition d'en faire une tribune incontournable pour la culture de notre peuple et pour son ancrage aux wagons du progrès humain

S O M M A I R E

Si la Mauritanie m'était contée

Le nouveau "Wassitt", ou la littérature mauritanienne d'aujourd'hui

Axes de réflexion pour un bilan de la confrontation entre mauritaniens et colonisateurs français (XIXé - début XXéS)

Appel à la mobilisation en faveur du mémorial de Gorée, au Sénégal

Fin de la visite officielle du directeur général de l'UNESCO

Comprendre Internet

Elle n'ira pas en ville

Attalim
Pédagogie et culture

Les contraintes de l'écologie

Responsable de Publication:
Ely O. Boubouth

Directeur de la rédaction:
Mohamed Iemin O. Mounir

Directeur technique:
Mouhamedou O. Hdiena

Assisté de :
Ahmed O. Cheikh
M'Barack O. Beyrouk
Ahmed Salem O. Boubouth

Secretariat de rédaction:
Ahmed Jiddou O. Med

Ont Collaboré à ce numéro:
Mohamed Said Ould Hamadi
Mbareck O. Béyrouk
Idoumou Ould Mohamed Iemine
Abdellahi Fall
Mohamed El Hassen Ould Beyah
Brahim Ould Sidi

PAO:
Infotex - ABAS
Tél: 57568
App. Mamy 2ème Etage N° 20

Ce numéro a été édité par la Commission Nationale pour l'Education, la Science & la Culture
Tél: 54803 BP: 5115 Nouakchott - Mauritanie

Tiré sur les Presses de l'Imprimerie Nationale

Al Mawqib

Revue culturelle éditée par La Commission Nationale pour l'Education, la Science & la Culture N° 13 & 14 1er trimestre 1998

Si la Mauritanie m'était contée

Le nouveau "Wassitt", ou la littérature mauritanienne d'aujourd'hui

Comprendre l'intérieur

Axes de réflexion pour un bilan de la confrontation entre mauritaniens et colonisateurs français
(XIXé - début XXéS)

Responsable de Publication: Ely Ould Bouboutt